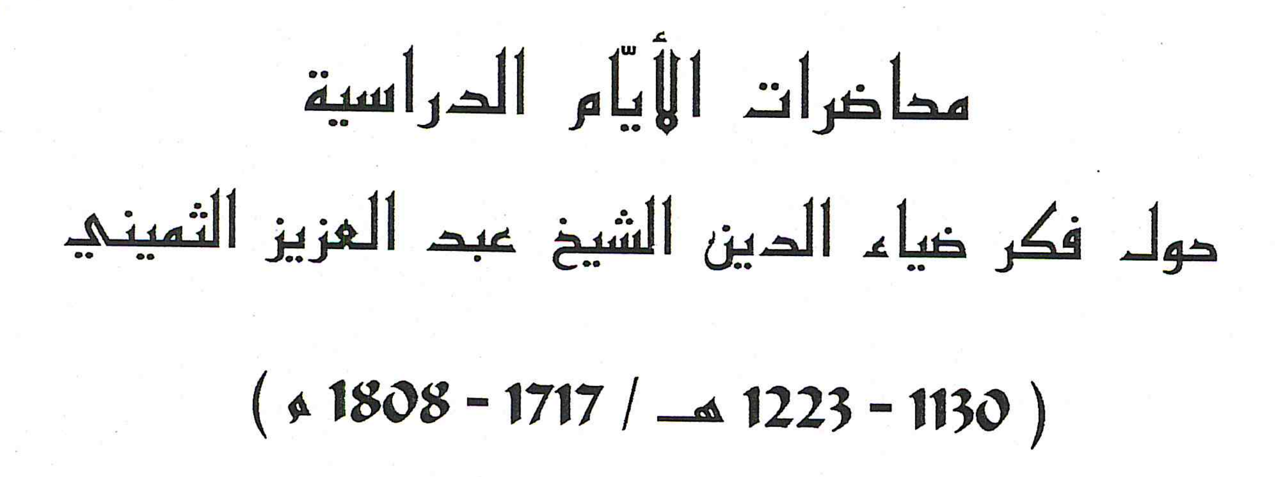


محاضرات الأيّام الدراسية

حول فكر ضياء الدين الشيخ عبد العزيز الثميني

(1130 - 1223 هـ / 1717 - 1808 م)

المنظّمة أيّام : 17، 18، 19 جوان 1999

بدار آل خالد - بني يزقن - غرداية



إشراف :

الجمعية الثقافية القطبية - بني يزقن

فهرس

محاضرات الأيام الدراسية

الصفحة	عنوان المحاضرة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

- مشايخنا الأجلاّء ، أساتذتنا الفضلاء ،
- أصحاب المعالي ،
- السادة المسؤولون : المدنيون والعسكريون ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مرحبا بالسادة النجب سادة العرفان والأدب.

تُعتبر الجزائر من البلدان الإسلامية الأكثر إنجابا لفطاحل العلماء، قديما وحديثا.

وحقَّ للجزائري أن يفخر بأمجاده وهو مرفوع الرأس، لأنّ أسلافه رفعوا رأس الجزائر جهادًا، وإنتاجا عبر التاريخ.

فانطلاقا من أصالة أمّتنا، ووفاءً لأعلامنا، وعرفانا بأعمال المخلصين المجاهدين، واعترافا من أنّ أمانة مدّ حبل التواصل بين الأجيال رسالة في عنق المثقّفين والباحثين من أبناء الجزائر، إذ لا عذر لهم على التقصير.

-انطلاقا من هذا كلّه- قامت الجمعيّة الثقافية القطبية لبني يزقن بتنظيم هذه **الأيّام الدراسية حول فكر العلاّمة ضياء الدين الشيخ عبد العزيز الثميني** -رحمه الله تعالى-، حتّى لا نجهل ماضينا الحافل بالأمجاد، فقد آن الأوان للمخلصين أن يشمّروا عن ساعد الجدّ لنفض الغبار المتراكم على كتب العلماء الذين يكفيهم فخرا أن تجاوزت أعمالهم وطنهم الضيّق إلى آفاق الوطن الإسلامي الفسيح وإلى العالم كلّه.

فرغم التجاهل والتناسي فالجزائر تبقى معدنا من معادن الفضيلة والعلم، ومنبت العزّ والكرامة، ومعقل الإسلام.

فكلّ شبر في الجزائر شاهد على ما أقول وناطق به. فوادي ميزاب من المناطق التي شرّفت الجزائر بما أنجبت من العلماء والأمجاد في كلّ الفنون.وتعتبر حصنا من حصون الإسلام القويّة.

فالجمعيّة الثقافية القطبية لبني يزقن من الجمعيات التي تسعى بكلّ ما تملك من قـــوّة معنويـــة ومادية أن تخدم تراث الأسلاف، وتتيح الفرصة لكلّ باحث أو دارس للتراث، أو مبدع فيه، ولكـــلّ فنّان أن يعبّر عن تراث أمجاده بما يراه خياله.

لماذا أيّام دراسيّة حول فكر الثميني ؟

في 1995 قامت الجمعيّة بمراسلة الدكاترة والأساتذة والمشايخ على مستوى الـــوادي وعلـــى مستوى جامعات الجزائر، مقترحة عليهم خطّة محاور في فكر الثميني، فجزاهـــم الله عنّـــا خـــيرا إذ استجاب الكثير ورحّب بالفكرة، ومنهم من لم يجب على المشروع.

ففي 1996 ضبطت الجمعية قائمة الأساتذة الذين أبْدوا استعدادهم للمشـــاركة، فراســـلتهم ليشرعوا في تحضير مواضيعهم، مع أواخر سنة 96 حدّد تاريخ الأيّام الدراسية إلاّ أنّ الظروف الأمنيـــة لم تسمح بقيام هذا العمل. فبعد أن حبانا الله تعالى بالأمن وأحسسنا أنّ بلادنا الحبيبة الجزائر لا تقبـــل الخمول والتستّر وراء ظروف يُمكن أن تجعلنا متقاعسين، فالجزائري من طبعه الإقدام والطمـــوح، ولا يهاب الصعاب.

ففي أواخر 1998 أعدْنا مراسلة أساتذتنا الفضلاء الذين أبدوا اســـتعدادهم في المـــرّة الأولى، فكانت الاستجابة الفردية لهم، وعلى رأس هؤلاء الدكتور الربيع ميمون، ولا يفوتني في هذا العـــرض أن أترحّم على الدكتور صالح خرفي الذي كم أتمنّى أن يحضر أيّام الثميني –رحمه الله تعالى– وقيّض الله للجزائر أمثاله.

وها نحن بلغنا جزء من مُنانا اليوم.

أصالة عن نفسي ونيابة على كلّ زملائي في الجمعية أتقدّم بالشكر الجزيل لعلمـــاء الجزائـــر ومشايخها وأساتذها على تلبيتهم دعوتنا، وثقتهم بنا. وأشكر كذلك كلّ الذين ساهموا في إنجاح هـــذه الأيّام وسهروا معنا، ووقفوا بجانبنا مادّيا ومعنويا.

فشكرا لوزارة الثقافة والاتّصال، ولكتابة الدولة للثقافة على رعايتها هـــذه الأيّـــام، وعلـــى تأييدها لنا على تنظيم هذه الأيّام.

كما لا أنسى الخطوط الجويّة الجزائرية، والنادي السياحي الجزائري T.C.A، والخدمات الســـياحية الدولية I.T.C على دعمها لنا كذلك، وكلّ المحسنين الذين لم يبخلوا بما فضّل الله به عليهم من خير.

ولا يفوتني أن أنوّه بدور بلدية بنورة وعلى رأسها السيّد رئيس المجلس الشعبي البلـــدي الـــتي وفّرت لنا كلّ وسائل الخدمات لهذه الأيّام، وكذا العشائر التي سخّرت لنا دورها خِدمـــــة للأيّـــام، وعائلة الثميني المباركة.

وأشكركم أنتم سادتي على حضوركم اليوم إذ لولاكم لما تمّت الفرحة، ولما حقّقنا الأهـداف. فجزاكم الله عنّا كلّ خير.

وممّا أثّر في نفسي تلك الكلمات الطيّبة التي سمعتها من السلطات العليا في البلاد، وكـــذا المحليّة مبارِكة أعمالنا، ووسائل الإعلام الوطنية المكتوبة والمسموعة والمرئية على تقديمها للأيّـام في صفحاتها وبرامجها.

وأقول مرّة أخرى أهلا وسهلا بكم في بني يزقن، طبتم وطاب ممشاكم وتبوأتم من الجنّة مترلا.

أملي أن أكون قد ساهمت في إثراء تراثنا الجزائري الذي أعتزّ به وأفتخر، وأن أكون من الذين يعترفون بالجميل الذي قدّمه الأسلاف.

فالجزائر بحاجة إلى أن نُعلي أمجادها، ونفتخر بهم دون عُقَدة لأنّ الســـلف -رحمـــهم الله- في الجزائر، مجاهدون، مخلصون، علماء فطاحل فلا يستطيع أحد أن يعقّدنا.

فأمشي مرفوع الرأس، منتصب القامة لأنّ بلادي تزخر بالعلماء، في كلّ الميادين، فـــالجزائر واقفة مهما حاول الأعداء أن يُركعوها.

أوَليس من العيب والعار أن نعقّد أبناءنا بأسلافهم، ونبحث لهم عن العلم عند الآخرين ونجهل أمجادنا، لا ولن يكون ذلك، فارفع رأسك يا جزائري واستفق فإنّ التاريخ لا يرحم.

فأحيّي كلّ المخلصين في الوطن العزيز فأقول لهم: معذرة إن لم أسمع بكم و لم أوجّه لكم دعوة لحضور هذه الأيّام، فميزاب تتّسع لكلّ منصف لها، وغيور على بلده.

- بـــلادي أحبّك فوق الظنون ... وأشدوا بحـــبّك في كلّ نـــاد
- بـــلادي الأمـــان الأمـــان ... أغنّي علاك في كلّ مكـــان
- إن خلت شمسا قلت بـــلادي ... أو طلّ بدر قلت بـــلادي
- أضـــناني حبّي للبنت الـــكرام

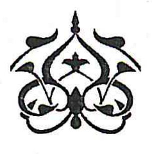
إنّ حبّ الجزائر يسري في عروقنا، فحسبنا الله تعالى من الذين خانوا الجزائر، وغيّروا وَجْهها، ومزّقوا قلوب الغيورين عليها، إلاّ أنّ الأمل عاد لنا إذْ رأينا مخلصين يمسحون الدموع، ويبنوا العزّة والكرامة من جديد.

تحياتنا الخالصة لرئيس الجمهورية المجاهد عبد العزيز بوتفليقة من هذه المنصّة.

شكرا، شكرا وألف شكر لكم على هذا الحضور، والسلام عليكم.

رئيس الجمعيّة

صالح بن إسماعيل بليدي



بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

الرئيس

رسالة رئيس الجمهورية إلى الجمعية الثقافية القطبية

بسم الله الرحمن الرحيم

أيّها السادة والسيّدات ،

من واجبات الوفاء والعرفان، ومن السنن الحميدة أن يكرّم العلماء والمثقّفون، وأن يُرفع من شأنهم. ومن مكارم الأخلاق أن يعترف الخلَف بمآثر السلَف الصالح وبفضله وفضائله، وكلّما تساءلت عن نوعية العلاقة بين السلطة والعلم وآثرت أن يكون العلم في خدمة السلطة كلّما صلحت بطانتها، وأن تخضع السلطة للعلم كلّما سُخّر تسخيرا مُحكما في خدمة البلاد والعباد، وأعني بذلك تطابق العالِم قولا وفعلا مع الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَآءِ﴾. هذه العلاقة بين السلطة والعلم إن حَسُن استعمالها في تكاملٍ لخدمة المجتمع استفاد الشعب منها وصلح المجتمع، وإن عكس ذلك دخلت هذه المعادلة في تناقضات لا نعرف كيف تبدأ ولا كيف تنتهي، تاه العالِم في غياهب الجهل واندثرت السلطة في ظلمات القهر والطغيان. هذه فرصة سانحة إذن تتاح لي اليوم لأقف مع جمعكم الكريم في حضرة روح أحد أبناء وطننا العزيز، الطاهرة، لأستلهم معكم بعضا من نفحاته الطيّبة، تلك التي زرعها في النفوس، فجاءت جيلا بعد جيل، تنير الطريق للضالّين، وتأخذ بيد التائهين في متاهات الجهل والتخلّف.

إنّنا نقف، اليوم، خاشعين في حضرة أحد أعلام الجزائر الأفاضل الذين رسّخوا معالم الشخصية الوطنيّة بكلّ مقوّماتها، ورفعوا لواء المعرفة والجهاد بالعلم، ناشرين المحبّة والإخاء والتضامن الوطن في أسمى معانيه، في وقت كانت فيه الدولة الجزائرية يحسب لها ألف حساب، وتَرسم لها الدوائرُ الخبيثة المؤامرات والمناورات للإطاحة بها، وهي التي كانت القلعة، والحصن المنيع للإسلام ومركزه الأمامي في مواجهة الخطط الصليبية والتسلّطيّة التي أتت عليها في النهاية، في لحظة من الضعف والوهن. ذلكم هو العالِم النحرير، والبحر، المرحوم الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، الذي جمع في اسمه نور الله الذي أفرغ جلّ جلاله بعضا من قبساته في دينه وكتابه المبين، وجمع أيضا العزّ من عزّة الله، فكان جوهرة في عِقد ثمين وسلالة طيّبة طاهرة كان لها العلم والسياسة، والدين والدنيا، فانتظمت في حُلّة سيراء تألّقت شذراتها في سماء بلدنا المظلم، التي كانت سحب الوباء والبلاء قد بدأت تحوم حول شواطئه بُعيد وفاته.

كان -رحمه الله وطيّب ثراه- نابغة عصره، اعتمد الطريق الصّعب ونجح فيه النجاح الباهر. فقد كان الانحطاط قد دبّ في المجتمعات الإسلاميّة، وبلغ فيها شأوا بعيدا حتّى صار الإنسان يضرب بيديه، لا حول له ولا قوّة، مستسلما للبدع والخرافات، وأقوال العرّافين والمشعوذين الذين شوّهوا الدين، ورفعوا الرذيلة على الفضيلة، وغلّبوا الرداءة على الكيف والنوعية، وتسابقوا في السوء والمنكرات، فأخذ جسم الأمّة يُفترس في كلّ حين، ولا من منقذ ولا من هاد. لماذا؟...لأنّ الأمّة الإسلاميّة ضربت صَفْحا على مرجعيتها التي أفنى العلماء حياتهم في بنائها لبنة لبنة، وجيلا بعد جيل، ببناء منطق خاصّ ومنهجية متكاملة متكافئة وملائمة لمسايرة تطوّر المجتمع، جامعين كلّ شاردة وواردة، فتآكلت مع مرور الزمن وتلاشت معالمها، فحلّت الخرافات محلّ العلم الصحيح والإيمان الراسخ واليقين الوضّاء. فانتفضت ثلّة من العلماء الأمناء على مصير هذه الأمّة، وهبّت للذّوْد عن الشريعة السمحاء، والتقاليد المؤسّسة للأمّة، وكان رائدهم المرحوم ضياء الدين عبد العزيز الثميني. فاعتكف ثماني عشرة سنة للتأليف والتدوين، وهو الذي تولّى الإفتاء، فسبر أغوار المجتمع، وأسرار وحكمة تنظيمه، وعرف كما لم يعرف أحد أهواء الناس وميولاتهم وأسباب انزلاقهم وانحرافهم، وخلافاتهم. كما رجع إلى الأصول المؤسّسة للمرجعية العربية الإسلامية، وقواعد عملها وأدوات منهجيتها. وإذا كان

ضياء الدين قد جاء متأخّرا وقد عاصر آخر مراحل الانحطاط، فكان المسعى شاقًّا والوضع متفاقما، فإنّه مع ذلك جاء ليعطي للمرحلة دفعا جديدا ويفتح للأمّة الإسلاميّة قاطبة آفاقا كانت إلى حينه مسدودة: فقد جاء ليضع اللبنات الأولى لحركة إصلاحية عارمة لن يمرّ وقت طويل حتّى تعمّ مشارق الأرض ومغاربها، وهذا منحى من مناحي البحث يجب أن يتوجّه إليه الدارسون والباحثون لينفضوا الغبار عن مساعي أبناء الجزائر وإسهاماتهم في الفكر الإنساني، تلك المساعي والإسهامات التي ضرب عليها النسيان وأسدل عليها الستار، وكأنّ هذا البلد الآمن لا تناله الرحمة ولا يوجد فيه إلاّ من تعطّلت عقولهم، وصمّت آذانهم ووقفوا على حافّة الطريق لا تهمّهم قوافل التقدّم والرقي بل لا يلتفتون إليها، ويعلم الله والعارفون ما قدّم أبناء الجزائر لفائدة الإنسانية. فقد كانت شبكة الاتّصال بين علماء المسلمين كثيفة متشابكة يتنادون من كلّ حدب وصوب، ويتشاورون فيما يعلي من شأن الإسلام والمسلمين، ويكفي منطقة ميزاب فخرا أن كانت منطقة تقاطع كلّ خيوط هذه الشبكة من علاقات الخلاّن والإخوان في الله، الصامدين في وجه المسخ والبدع والخرافات، وتشويه الأمّة الإسلاميّة ومسخها وقطعها عن أصولها المتمثّلة في الشجرة المحمّدية الكريمة، والمشتملة على السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين.

لقد أدرك الشيخ ضياء الدين ثِقل المسؤولية الملقاة على عاتق المثقّف -كما نقول في عصرنا هذا- أو العالِم كما يقال في العصور الماضية، ووعي تمام الوعي ما كان يحدق بالمجتمع الجزائري من أخطار متعدّدة ومساع هدّامة، فدَأَب على إعادة تأسيس المنطق الإسلامي، ذاك الذي نجح به الأوائل في مواجهة أحبار اليهود وقساوسة النصارى في مناظرات شيّقة لسان حالها الآية الكريمة ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فجمعت تراثا لا ينضب من آداب الحديث والمناقشة، والدفاع عن الموقف بكلّ صرامة مع اللين والتسامح الذي تفرضه مكانة أهل الكتاب في الإسلام. وقد ساعد شيخَنا العظيم ما تراكم وتواتر من أخبار العلم والعلماء في عهد «الرستميين» والمجالات الفسيحة التي فتحوها للحرّية، وحرّية الرأي والتعبير، فنهل منه وغرف، كما استفاد من الوضعية الخاصّة للمسلمين في «وادي ميزاب» وطريقة إدارة شؤونهم العامّة والخاصّة والتي وضع أُسُسَها الشيخ «محمّد بن بكر» في أوائل القرن الخامس الهجري، والتي أخذت أساسا لها من الكتاب والسنّة ووضعت نظام«الجمهور»، أو حكم «الجمهور» وهو ما نطلق عليه في مصطلحاتنا السياسية المعاصرة:«النظام الجمهوري». من هذه

الأصول والفروع، ومن هذه الخطوط العامّة انصرف شيخنا إلى المنطق يحييه، وإلى الفقه ينشره، وإلى الأخلاق يلقّنها، وإلى المعارف يغرزها غرزا، علّه بذلك يوقف السرطان الطاغي المنساب في المجتمع في جوّ تزامن فيه تعفّن الحكّام وجهل العوام وتكالب الأعداء. وما كتاب «النيل وشفاء العليل» و«التكميل فيما أخلّ به النيل» و«التاج» و«المصباح» سوى عناوين لها دلالتها، وجواهر سَنيّة رصّعت جبين هذه الأمّة وتألّقت على صدرها تزهو بها الأنوار وتلهو.

لقد أسهم رحمه الله بما لم يسهم به إلاّ القليلون في العالم، ويمكن أن يكون اسمه مع أسماء العلماء الأجلاّء الذين خدموا الجنس البشري والثقافة البشرية في أسمى معانيها ومظاهرها. ورفع لواء العلم عاليا في هذا البلد الطيّب الطاهر. وإذا كان غصنه النضير من شجرة طيّبة أنبتتها تربة «ميزاب» الزكية، فإنّ «ميزاب» فرع من شجرة كريمة أصلها ضارب في أعماق التاريخ، رعاها أبناء بررة وسقتها أجيال متعاقبة، همّها الوحيد أن تعيش حرّة كريمة، ومن أجل ذلك وضعوها في حديقة غنّاء من الحضارة والعلم وحسن التدبير والتسيير، فأرسوا قواعد نظام يدعو إلى التسامح والوئام. تلك الشجرة الكريمة هي الجزائر التي جمعت -هي الأخرى- حسن جميع الجزر، فكانت جمعا في مفرد لأنّها جمعت الحسن كلّه. ففي الجزائر أرحام تتعاطف مهما اختلفت المذاهب والمناهل والمشارب، ولنا أن نقرّ حقيقة أساسية هي أنّ الأُمم تُبنى بالعلم والثقافة والأخلاق الحميدة، وقد اجتمع كلّ ذلك لهذه الأمّة والفضل في ذلك يرجع كلّه إلى المجتمع الذي لم ينغلق على نفسه رغم القيود التي فرضتها عليه عوادي الزمن ومناورات الأعداء وتخاذل الأصدقاء والأشقّاء، فالفضل كلّ الفضل يرجع إذن للمجتمع وإسهامات أبنائه من كلّ الفئات والجماعات، كلّ حسب إمكانياته وملكاته الفكريّة والعقليّة. وليس من باب المبالغة القول إنّ الإباضية منذ أن لمع نجمها في هذه الديار لم تتخلّف قطّ عن الركب، ولم تبخل قطّ بالعطاء السخيّ واليد المبسوطة والصدر الرحب، وليس أدلّ على ذلك من وُقوفنا اليوم لنُقيم ذِكرى رجل فذٍّ لم يشغله متاع الحياة الدنيا بل تقرّب إلى الله زلفى، وانصرف لِما هو خالد باق بقاء الحياة في الدنيا والآخرة، وكلّ ذلك من تقاليد دين لا يفرّق بين الناس إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

إنّ هذه الوقفة وقفة للمثل العليا التي دفعت أبناء الجزائر إلى خوض عباب بحار هوجاء من التقلّبات الداخليّة والخارجيّة لا يقف في وجهها سوى من سبرته المحن وصقلته الأيّام، وفتحت عينيه

على حقيقة الرهانات المطروحة على الساحة الوطنية والساحة الدولية، والمكانة اللائقة التي يجب أن تتبوّأها فيها جزائرنا الحبيبة. ذلك أنّ المثل العليا هي التي تقود وتوجّه الشعوب العظيمة نحو مصيرها من العزّة والسؤدد، وكذلك من البأس والقوّة. وكم نحن في حاجة اليوم إلى مثل هذه المثل العليا والقيَم التي عكف «الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني» مع أقرانه من العلماء الصالحين على غرسها في مجتمعنا واحتفظت بها «الإباضية» كاملة وسليمة من كلّ دنس، رغم محاولات الاستعمار الذي كاد أن يقضي عليها، فكان «وادي ميزاب» الحصن المنيع الذي تحطّمت عليه كلّ ضرباته اليائسة. كم نحن في حاجة اليوم إلى مثل كلّ ذلك، وقد هبّت علينا ريح صرصرٌ أُريد لها أن لا تُبقي ولا تذر، فكانت إرادة الله أقوى، والنوايا الطيّبة والنفوس الخيّرة في هذا الوطن الغالي حاسمة في ترجيح المصلحة الوطنية على إرادة التدمير والتخريب بكلّ أشكالهما، وذلك لبقايا في أعماق في هذه النفوس من مناقب«ضياء الدين» وغير «ضياء الدين» من المصلحين والصالحين.

فماذا لو عدنا إلى هذه المناقب، كلّ في مستواه، لنستلهم منها منهجنا ولنثبت بها خطواتنا لنتطلّع لمستقبل وَضَعَ معالمه السلفُ الصالح وتمنّاه المجاهدون والمناضلون وصرخ به الشهداء في وجه العدوّ:

"قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات"

فردّدت جبال الجزائر ووديانها وسهولها:

"يا تُرى يأتيك يوم تزدهر فيه الحياة ؟"

فالتمنّي يزرع الأمل، والأمل يبعث على العمل، والعمل يشيد ويعمر، وبذلك يتحقّق الترابط بين الماضي والحاضر والمستقبل، ويعمل الخلف على استحقاق جهود وتضحيات السلف، وبذلك تزدهر الحياة في بلدنا الطيّب هذا، وفي أرجاء أمّتنا على امتداد رقعتها واختلاف أجناسها.

لنا بلد حصن منيع لا يهتزّ ولا يتضعضع في كيانه أو شخصيته أو تماسك شعبه رغم الامتحانات وبنات الدهر. لنا بلد ضربت بها الأمثال في العطاء والصمود والتصدّي. لنا بلد في المغرب وسطيّ، لبّ في الوطن العربي بمكانة القلب، وفي القارّة الإفريقية من الأركان الأربعة التي لا غنى عنها. كلّ فيه يدعو إلى الشموخ، كلّ فيه يدعو إلى العزّة والكرامة، إذا ما اجتمع كلّ أبنائه على

خدمة الوطن ومخافة الله. لكن لنا بلد على شواطئ البحر الأبيض المتوسّط يتفاعل في كلّ دقيقة وفي كلّ ثانية بما يطرأ في العالم من تحوّلات وتغيّرات لا سبيل لنا للطمع في الوصول إلى سوعتها. ومادمنا نتكلّم عن العلم والعلماء، أوَلَم يحن وقت فتح باب الاجتهاد من جديد لذوي العلم والخبرة والاختصاص، بعيدين عن شقشقة اللسان والثرثرة العقيمة والجمل المركّبة والإسهاب والإطناب في ما لا يرضي الله ولا العباد. أَلَم يحِن إذن وقت تضمن فيه هذه الشروط؟ ألم يحن إذن فتح باب الاجتهاد من جديد.

وفّقنا الله جميعا لخدمة هذا الوطن الغالي، وتحقيق مصلحة البلاد والعباد.

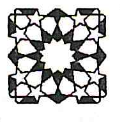
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأربعاء 02 ربيع الأوّل 1420هـ

الموافق لـ 16 جوان 1999م

رئيس الجمهورية

عبد العزيز بوتفليقة



وزارة الشؤون الدينيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

السادة الأفاضل ،

السادة الضيوف الكرام ،

الإخوة المشاركون ،

نيابة عن معالي السيّد وزير الشؤون الدينيّة بوعبد الله غلام الله الذي لم تساعده مهامه على حضور هذا اللقاء المبارك، أقدّم هذه الكلمة المتواضعة وأبدأها بتحيّة الإسلام فأقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهل هناك تحيّة أشرف معنى وأعمق دلالة وأرفع تعبيرا من تحيّة الإسلام؟ إنّها تحيّة ارتضاها ربّ العالمين فجعلها تحيّة أهل الجنّة، قال تعالى في محكم تتريله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، هذا السلام واحة أمن واطمئنان، وروضة هدوء واستقرار لنفوس آمنت بربّها فخضعت واستكانت خاشعة ملبيّة نداء ربّ العالمين.

هذا السلام ما انفكّت البشرية تبحث عنه وتسعى سعيها إليه وتبذل مجهودات شتّى وضخمة لتحقيقه دون ما فائدة، ما دامت لم تلتمس الطريق الصحيح إليه، وما دامت في عمى وتكبّر عن هذا الدين العظيم.

والجزء الثاني من هذه التحيّة يتمثّل في الرحمة، رحمة الله التي يخصّ بها من يشاء من عباده، وهي مشاعر رقيقة وأحاسيس فيّاضة وسلوك عملي إيجابي من محبّة وإخلاص وتعاون وتضامن، وتواصل وتكافل لإشادة مجتمع فاضل، فمن أثر رحمة الله على عباده المؤمنين ما وصفهم به في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، ولفضلها وأثرها العميقين، دعا المؤمنون ربّهم قائلين: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَّدُنْكَ رَحْمَةً اِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ﴾، فباب الرحمة واسع وما عرجت عليه إلاّ لفتا للنظر وارتباطا وانسجاما مع ما ورد في تحيّة الإسلام.

أمّا الجزء الأخير من تحيّة الإسلام فيبدو واضحا في كلمة: «وبركاته»، والبركات الإلهية مشروطة بالإيمان والتقوى فمن حرمهما حرم البركات وزالت عنه النّعم، قال تعالى: ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ

القُرَى آمَنُواْ واتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ برَكَاتٍ مِنَ السَّمَآءِ وَالاَرْضِ﴾، إنّه عطاء إلهي لا تجد لـه حـدودا، فعطاء ربّك غير مجذوذ. هذه إذن تحيّة المسلم، بلّغها الرسولﷺ لأصحابه وأوصاهم بها إلقـاء وردًّا، هذا شيء ممّا ورّثه الرسول لأصحابه، وما ورّث الأنبياءُ أهلَهم ولا أتباعهم درهما ولا دينارا، وإنّما ورّثوهم العلم، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «فضل المؤمن العالِم على المؤمن العابد سبعون درجة».

وبمناسبة انعقاد هـذه **الأيّام الدراسية حول فكر ضياء الدين الشيخ عبد العزيز الثميني** بإشراف الجمعية الثقافية القطبية، فإنّ نفوسنا راغبة في الوقوف على محطّات اقتداء وائتساء بكلّ عـالم ومفكّر من الرعيل الأوّل، الذين سطعت أنوارهم وسط ليل بهيم، وإنّ قلوبنا تهفوا إلى سماع ما قدّمـه الشيخ الثميني للأمّة من خدمات ومساهمات جليلة في ميدان نشر الوعي الديني والآداب الإسـلاميّة، ومحاربة البدع والخرافات.

إنّ الاهتمام بالتراث الفكري لكلّ أمّة يعتبر مقياسا لمدى مساهمتها في بناء الحضارة الإسلامية، ومدى صمودها في الحفاظ على الذاكرة الجماعية والتاريخية لشعوبها.

إنّ وزارة الشؤون الدينيّة تتطلّع إلى آفاق أوسع في خدمة موروثنا الحضاري.

إنّ السيّد الوزير يولي عناية خاصّة للاستمرار في خدمة التراث وتقديمه لشبابنا ليكونوا خـير خلف لأفضل سلف.

وفي الختام أحمد الله تعالى على أن يسّر لنا هذا اللقاء المبارك، لقاء العلم والثقافة.

والله وليّ التـوفيق.

19 جـوان 1999م

مدير الثقافة الإسلامية

محمّد يوسفي

بسم الله الرّحمن الرّحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد الكريم

كلمة عائلة الثميني بمناسبة الأيّام الدراسيّة حول فكر الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني

مشايخنا وأساتذتنا الأجلاّء،

إخواننا الأعزّاء،

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته،

بروح من الاعتزاز والتقدير، أتشرّف أن أقف أمام هذا الحضور الكريم، باسم آل الثميني لأتقدّم بداية بكلّ الشكر وخالص الامتنان لفخامة السيّد عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجمهورية للرسالة الطيّبة التي شرّفنا بها ولما احتوته من نبل المشاعر وصدق الإحساس نحو جدّنا العلاّمة الشيخ عبد العزيز ضياء الدين، ومن سموّ المعاني وطيّب التوجيهات، وهذا يشكّل في الحقيقة أكثر أن يكون تشريفا بل هو تكليفا بمسؤولية اتّضحت أنّها كبيرة تستوجب منّا روحا عتيدة لتحمّلها والوفاء لها.

كما أتشرّف أيضا بتقديم الشكر الجزيل والتقدير الخالص للجمعيّة الثقافيّة القطبية، للمبادرة الطيّبة والالتفاتة الكريمة بتنظيم أيّام دراسيّة حول فكر الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني عليه رضوان الله ورحمته.

وممّا يعطي هذه المبادرة نوعا من الامتياز والتألّق كونها تأتي في وقت يتطلّع فيه وطننا الحبيب الغالي إلى صحوة فكرية وعلميّة وثقافيّة تعيد للعلم والتعلّم والثقافة والمهارة الفكريّة مكانتهم الطيّبة في المجتمع كما أنّها ستجعل من رجل العلم والفكر والثقافة محور تسيير المجتمع وموجّه تطوّراته.

وفي هذا الإطار يبقى أملنا كبير أن تكون هذه الأيّام الدراسيّة حلقة من سلسلة طويلة من الحلقات تكرّسها جمعيتنا المحترمة، للتذكير والتعريف ودارسة حياة وتراث علماء ومفكّرين آخرين كان لهم الباع الوافر والإسهام الكبير في الحركة الفكريّة والعلميّة والدينيّة على المستوى المحلّي والوطني والإقليمي والإسلامي، والذي لا يزال معظمه مغمورا ومجهولا حتّى من أبناء منطقتنا هذه.

واسمحوا لي أن أذكُر على سبيل المثال لا الحصر، كلاّ من الشيخ أبي زكرياء يحي بن صالح، والشيخ صالح لعلي، والشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش، والشيخ أبي اليقظان، والشيخ إبراهيم بيوض، والشيخ عبد الرحمان بكلّي، والشيخ حمّو علي يوسف بن بكير العطفاوي، والمجاهد إبراهيم غرّافة، والشيخ الشهيد بلحاج قشّار، والشيخ بكير رشوم، رحمة الله عليهم جميعا.

ولا يفوتني، ونحن بصدد ذكر جنود العلم والتعليم وفرسانها، ذكر شيخنا الجليل الحاج صالح عيسى بزملال، وقلوبنا لا تزال جيّاشة بالألم والحسرة، واليوم هو ثامن أيّام التحاقه بجوار ربّه بعد حياة مفعمة بطلب العلم وخدمته وقراءة القرآن وتحفيظه للأجيال. تغمّده الله برحمته الواسعة ورزقنا جميعا، عائلته الصغيرة وعائلته الكبيرة، جميل الصبر والسلوان، إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

أيّها السادة الأفاضل،

يقول مفدي زكرياء، شاعرنا العظيم، رحمه الله:

ومن لم يرع للأجداد عهدًا	فيجدّد صانعي الأجيال خابا
ومن يذبح كرامته ويهدر	ذمام بناة صرح المجد ذابا
وفي الأرحام والأصلاب منّا	ومنكم حرمة كلمت نصابا
وفي التاريخ موعظة وذِكرى	إذا ما الحرّ للحسنى استجابا

مشايخي وأساتذتي الأجلاّء،

إخواني الأعزّاء،

عاش الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني ما يناهز الخمسة وثمانون سنة، قضاها في التعليم والتعلّم والكدّ والاِجتهاد، وذلك في ظروف صعبة ومن القساوة بمكان، وترك تراثا فكريا ضخما، لا يليق تناوله والخوض فيه في هذا المقام وأمام مشايخ وأساتذة، وهم الأجدرون به والأكثر كفاءة.

ولكن من منظور حفدته فلقد شخّص الشيخ رحمه الله المثالية في سيرته والثبات على المبادئ والتمسّك بالقيَم مهما تقلّبت الأحوال وعظُمت الأخطار.

لقد توارثنا عنه: **أنّ الرجال بمبادئها والمجتمعات بقيَمها.**

فكان مثالا حيًّا لمذهب الاِستقامة عقيدة وعملا، ولعلّ أيّها السادة في تركه للتجارة والفلاحة وكسب المال وتفرّغه كلّيّة للعلم والعمل الاجتماعي وإصلاح المجتمع وتقويم المعوجّ فيه، لدليل واضح على ذلك.

كم عزّ على نفسه ما آل إليه مجتمعه، في عصره الذي كما وصفه الشيخ الحاج محمّد بن الحاج صالح الثميني، وهو من أشهر حفدته، عصر بلغ فيه الوطن أقصى درجات التدنّي والانحطاط الفكري، عصر نشوب نار الفتن بين المسلمين، وهذه أكبر محنة أُصيب بها الإسلام كما نعلم. عصر استفحل فيه الجهل، وتأصّلت العادات الفاسدة، وديست فيه حرمة القيَم الروحيّة، فكثرت البدع وتولّى الحكم رؤساء جهلة متعصّبون.

كم هو صادق الإمام عليّ، كرّم الله وجهه، إذ يقول:

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

واجه الشيخ، رحمه الله، هذا الوضع المزري بكلّ عزيمة وإيمان وذلك بنشر العلم وتوعية العامّة في أمور دينهم ودنياهم، والعمل على نشر الفضيلة. ولكن مهمّته لم تكن سهلة إذ قوبل بمختلف أنواع الاضطهاد والمقاومة، ووضع العراقيل أمامه.

لكن إيمانه كان أقوى بأنّ الحقّ منتصر والباطل زاهق، لأنّ الحقّ يعلو ولا يُعلى عليه، وما هو الحقّ أيّها السّادة الأفاضل إن لم يكن جوهره أخلاق وقيَم روحيّة وفضيلة؟

قال تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، صدق الله العظيم.

وإذا نظرنا، سادتي، إلى أوضاعنا الحالية، وما آلينا إليه لخلصنا إلى القول: ما أشبه الليلة بالبارحة، وهنا قد يبدو لنا في سيرة الشيخ عبد العزيز وفي كفاحه الطويل والمرير وفي ما تركه لنا من تراث مكتوب، دروسا ومواعظ يمكن العمل بها والاستلهام منها لإصلاح أوضاعنا الحالية وإعداد مستقبل سعيد ورغيد للأجيال ا لمقبلة.

شكرا مرّة أخرى لجمعيتنا العتيدة لطيّب مبادرتها ولمشايخنا وعلمائنا الأجلاّء على مشاركتهم الفعّالة، ونتمنّى كلّ النجاح والتوفيق لهذه الأيام الدراسيّة.

دمتم جميعا في حفظ الله ورعايته، والسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ضياء الدين عبد العزيز الثميني
من خلال كتابات بخط يده وبعض مخطوطات نادرة

الأستاذ: عمر إسماعيل

آبائي الأعزّاء، ضيوفنا الكرام، إخواني أخواتي،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أجد المقام جليلا يوحي بالخشوع والعظمة، جموع طيّبة مهيبة، شيوخ وأساتذة فضلاء، أجواء علميّة ملائكيّة.

الحقّ أقول: ما كنت لأتحمّل مسؤوليّة هذه المداخلة التي كان البرنامج من قبل يلقيها على عاتق شيخنا رحمه الله الحاج صالح بزّملال، لولا أنّ المنيّة قد أدركته، ووعد الله حقّ فلا مفرّ منه.

إنّ الحاج صالح بن عيسى بزّملال أحد الأعلام الذين رحلوا عنّا، رحل عنّا ومعه كثير من المعارف، فهو الأديب المرهف الحساسية، وهو الملمّ بكثير من العلوم، فهو المجاز في القراءات العشر، وهو الرجل الحفّاظة ذو الذاكرة القويّة، فَكَمْ كان أملي كبيرا أن يحدّثنا في هذا المقام عن الثميني وعصره، فقد كان بتونس وعاشر هناك حفيد عبد العزيز الثميني محمّد بن صالح الثميني وغيره، ولا ريب فإنّه سيعلم الكثير عن الثميني بواسطة مَن هو أقرب إلى الثميني، خاصّة وقد كان أسبقنا عهدا، وكان من بلدة الثميني، وكان شديد الإهتمام بأحوال العلماء السابقين، وبأحوال عصرهم، وبكلّ ما تركوه من التآليف، وعلى هذا كلّه فسيكون حقّا أكثر إلماما بكثير من المسائل عن شخصيّة الثميني وعن أحوال عصره، ولكن ليس في الإمكان غير الذي كان، فالله يفعل في ملكه ما يشاء.

لقد وجدت نفسي ملزَما بهذه المداخلة، فهي مداخلة إنّها ليس محاضرة، فالأساتذة والمشـــايخ معنا والأيّام الدراسيّة هذه إنّما جعلت لنسمعهم لا لنقول لهم.

لست أدري ما الذي أقوله في هذا المقام، فالذين سبقوني قد قالوا عن الثميني أشياء، والذيـــن سيأتون سيزيدون الكثير، ولقد كانت كلمة رئيس الجمهورية عن الثميني وأحوال عصـــره حقّـــا في الأعماق، وستجدون بالكتاب الذي وضعته ويوزّع في هذه المناسبة الكثير عن حياة الثميني وعصـــره، وكذلك بالمعرض المُقام على هامش هذه الأيّام صوَر عن حياته وعصره.

وحقًّا إنّ هذه الأيّام الدراسيّة إنّما نُظّمت لنسبر أغوار شخصيّة ضياء الديـــن عبـــد العزيـــز الثميني، وندرك أبعاد محيطه وعصره.

والذي اخترته لتقديمه في هذا المقام باقات زهر: مقتطفات من كتابات له بخطّه، بقيت بـــين أيدينا محفوظة من العاهات، رأيت من اللائق أن نتشرّف بها، وبها يكون الثميني معنا حاضرًا في هـــذا المقام المبارك، وبقراءاتنا بعض هذه النصوص التي كتبها بيده الشريفة -غفر الله له، وأســكنه فسـيح جنانه-، سنستنشق من خلالها بعضا من جوانب حياته وعصره.

شيوخه وتلاميذه

بادئ ذي بدء، إذا تحدّثنا عن الثميني نشأة فإنّا نقول: إنّه كان بورجلان مع والـــده يرعـــى أملاكه، كان بالتجارة والفلاحة وتربيّة الخيول، وكان محبّا للعلم والمعرفة.

انتقل -بعد رؤية مشهورة يحكيها عن نفسه في كتابه **تعاظم ا لموجين**- إلى بني يزقن بـــوادي مزاب بعد قدوم شيخه أبي زكرياء يحي بن صالح الأفضلي من رحلة علميّة دامت سنين.

ارتبط بشيخه أبي زكرياء تعلّما وتعليما وخدمة للمجتمع، فكان ملازما له ملازمـــة الظـــلّ، واشتهر أنّه شيخه الوحيد.

إنّ دراستنا التي أنجزناها لنيل درجة الماجستير حول الثميني وكتابه **معالم الدين**، أقنعتنا بـــأنّ للثميني شيخا آخر غير الأفضلي، إنّه أبو حفص عمرو بن رمضان التلاتي.

لقد اشتغل الثميني بكتب التلاتي في أوّل عهْدٍ له بالعلم والدراسة، واشتغل بها كذلك في آخـر عمره، لقد كانت دراسته عليه شبيهة بما يُسمّى اليوم بالتعلّم عن بُعد، فلقد تأثّر به أيّما تأثّر، وكاتَبه مع كامل التقدير مبجّلا شخصه الكريم. وممّا قاله في إحدى المنظومات التي أرسلها إليه:

«وما قائل عبد العزيز لشيخه حمى الله مَن عانى وحاز المعاليا».

هذا عن شيوخه، أمّا عن تلاميذه فعددهم كبير إلاّ أنّ الإحصاء لم يشملهم بعدُ، فمن الذيـن تمّت الشهرة أنّهم تلاميذه اثنان:

الأوّل : الحاج يوسف بن محمّد بن عدوّن، فقد تتلمذ على الأفضلي وعلى الثميني، وله آثـار عديدة، واشتغل بالعاصمة جزّارا ومقدّما خدمات علميّة لأمين المزابيّين هناك وللحكومة التركية.

أمّا **الثاني**: فهو الحاج إبراهيم بن عبد الرحمن، فقد تتلمذ كذلك علـى الأفضلـي وعلـى الثميني. لقد كان كاتبا وأديبا وشاعرا، لقد كان اللسان المعبّر عن أحـوال عصـره، والمعـبّر عـن انشغالات أهل العقد والحلّ، وله كذلك آثار عديدة.

وآن ذاك كان الثميني مشتغلا بالتأليف، فأعدّ للأمّة مصنّفات لها وزنها من بعده، وكان شـديد الانشغال كذلك بأحوال مجتمعه خصوصا، وبأحوال أمّته عموما، كما سنرى ذلك بعد قليل ببعـض نصوص حيّة ناطقة بذلك.

اسم والده واسم جدّه

ولعلّ أوّل النصوص التي سنستنطقها في هذا المقام المبارك وأمام هذا الجمع الغفير الفاضل تلـك التي تحدّد لنا اسم والده واسم جدّه.

إنّ المشهور أنّ اسم والده: «إبراهيم» أو «الحاج إبراهيم»، بينما نحن نذهب خلافا لِما هـو مشهور أنّه: عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم، وكان سنَدُنا في ذلك عدّة أدلّة، منها:

أنّ الحاج امحمّد بن يوسف اطفيّش يذهب إلى ذلك.

وأنّ الشيخ عبد الرحمان بكلّي يؤكّد هذا المذهب.

أضف إلى ذلك أنّ هذه الوثائق التي تروها ستزيل الإشكال نهائيا، ففي هذه الرسالة التي كتبها بخطّه الحاج إبراهيم بن عبد الرحمان ابن أخت الثميني مؤرّخة سنة 1206هـ جوابًا على رسالة جاءته من عُمان من الشيخ سليمان بن ناصر الإسماعيلي مؤرّخة سنة 1205هـ يقول الحاج إبراهيم فيها:

...«هذا وعليكم السلام التامّ والرحمة والبركة والإكرام من الجمّ الغفير والجمع الكثير والكرام الأعيان ذوي الحلّ والعقد على مرّ الأزمان، الجماعة العزّابيّة القائمة بأمر الدين في السرّ والعلانية، نخصّ من بلدنا بني يسجن قطب رحاها، وشمس ضحاها، عمدة المتصدّرين في المعقول والمنقول، وقدوة المدرّسين في الفروع والأصول، ذا التواليف العديدة، والتصانيف الحميدة، والمآثر الجليلة، والمفاخر الجميلة، العالِم العلاّمة الفاضل، الندب الأريب، الكامل ضياء الدين ونور العالَمين، شيخي وأستاذي وقدوتي، ونور مذهبي وجلدة ما بين عيني: عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني، الذي هو أخ لأمّي، أعزّه الله مولانا، وأطال بقاءه وأعلى شأنه».

هذا الذي كان بخطّ ابن أخته، أمّا الذي كان بخطّ الثميني نفسه فتعالوا نقرأه ونسمعه معًا من هاتين الوثيقتين اللتين تشاهدونها:

الوثيقة الأولى : صفحة أخيرة من **مختصر إعراب المنظومة الخزرجيّة**، للشيخ عمرو بن رمضان التلاتي، نسخها الثميني بيده: «هذا آخر ما وجده في الأمر بخطّ المعرب -حفظه الله-، أسير ذنبه، وجليس وحده، وأنيس دهره: عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم، نسخه بيده الفانية لنفسه الراجية لرحمة ربّنا الواسعة، والطُف بنا يا مولانا، وكُنْ لنا وليّا ونصيرا، ولإخواننا وصالح آبائنا، وقد كنت يا إلهنا على ما تشاء قديرا وبالإجابة جديرا، وصلاة وسلام على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى جميع المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين، آمين، آمين، آمين».

أمّا الوثيقة الثانية : فهو آخر كتاب **اللآلي المنثورات على نظام الموجّهات**، للشيخ أحمد المجيري الملوي، كذلك نسخه الثميني بيده يقول فيه: «تمّ ما وُجد في **شرح اللآلي المنثورات** للمجيري أحمد العلاّمة، شيخ التلاتي عمرو الفهّامة، صاحب **الدّرر التلاتيات**، على يد ناسخه لنفسه الفانية، لرحمة ربّها الواجية، عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني، ونستقبل الآن نسخ **الدرر التلاتيات** مستعينين بالله وبركة خير البريّات».

إنّ هذه الوثائق التي عرضناها، التي كانت للحاج إبراهيم بن بِحمان والتي كانت للثميني: كشفت لنا بعضا من جوانب عصر الثميني وحياة الثميني فيه.

لقد أدركنا مثلا:

- المراسلات التي كانت أنذاك إلى أين؟ وإلى مَن؟
- وأدركنا مكانة الثميني فيها.
- وأدركنا أنماط العلوم التي كان الثميني حريصا على تحصيلها.

ولقد استطعنا من خلالها أيضا أن نعالج ونضبط مسألة يجب الفصل في حقيقتها، وهي معرفة اسم والده واسم جدّه.

بين المالكية والإباضية

لنوصل الحديث عن عصر الثميني: لقد كان عصره عصر الانبعاث والنهضة رغم ما تميّز به من الظلم والجهل والاعتداء، وهي حالة كانت تعمّ كامل أرجاء القطر الجزائري مع اقتراب سقوط الدولة العثمانية.

تَميَّز عصره بالترابط والاتّصال الوثيق بين العلماء، فلقد وجدنا الثميني بشيخه التلاتي متّصلا، ووجدنا بين المغرب والمشرق مراسلات، ووجدنا داخل القطر ذاته مراسلات، فالتي كانت بين المالكية والإباضية مثلا يَكتنفها التقدير والإِحترام، وبيدنا الآن نموذجان:

النموذج الأوّل: سؤال من ناحية البيض إلى الشيخ يحي بن صالح الأفضلي في قضيّة الرهن، نسخها الثميني بخطّه، جاء فيها:

«...الحمد لله وحده. عن إذن سيّد الشيخ بن الدين إلى جماعة أهل مزاب كافّة وخصوصا، فقهاؤهم والمقدّمون منهم، وأهل الرأي سلام عليكم ورحمته وبركاته، هذا وموجبه إعلامكم بأنّه ورد علينا كتاب من ناحيتكم مضمنه أنّكم وقفتم مع (السماحي) ودفعتم له بعض المتاع، فجزاكم الله خيرا وأعانكم على البرّ والتقوى، وسدّد رأيكم، ورزقنا وإيّاكم التوفيق لِما فيه رِضى الله ورضى رسوله، غير أنّه قد تضمّن الكتاب...».

النموذج الثاني: رسالة من الحاج إبراهيم بن عبد الرحمن إلى الحاج عبد القادر بن الحاج محمّد، ومعها مرثية في الشيخ عبد العزيز الثميني، يقول في الرسالة:

«وبعد، فإلى العلاّمة الذكيّ، الفهّامة السريّ، المكرّم الوجيه، المعظّم النبيه، السيّد الحاج عبد القادر بن الحاج محمّد وجميع أولاده، مِن كاتبه عبيد ربّه إبراهيم بن عبد الرحمان، وهو يسلّم عليك وعلى من تحويه عنايتك في كلّ وقت وأوان، هذا ويقول لك قد عظّم الله أجرنا وأجرك في موت الشيخ، رحمه الله تعالى ورضي عنه، هذه حالة الدنيا وسبيل الأوّلين والآخرين، فقلت في شأنه قضاء لِما عليّ من بعض حقوقه...» وتأتي من بعد ذلك القصيدة.

فالنموذجان نصّان أحدهما من المالكيّة إلى الإباضيّة، والآخر من الإباضيّة إلى المالكيّة، والنصّان معًا يحدّدان مجال عصر الثميني، فالنصّ الأوّل كان إلى شيخ الثميني، والنصّ الثاني كان من تلميذ الثميني، فالنصّ الأوّل عيّنة من الأيّام الأولى من عهد الثميني، والنصّ الثاني عيّنة من الأيّام الأخيرة من عهد الثميني، وهما نصّان يملؤهما الاحترام والتقدير، ويدلاّن على المكانة المرموقة التي كانت تربط أهل الحلّ والعقد في عصره -رحمه الله-.

قضايا وأحكام

لقد صدرت كثير من الأحكام ومن القرارات في عهد الثميني، وهي في حاجة إلى مزيد من الجمع، ثمّ من بعد ذلك دراستها الدراسة الوافية لاستخلاص كثير من الأمور، ويمكننا أن نعلمكم في هذا المقام إلى أهمّ ما اطّلعنا عليه من الأحكام في ذلك العصر:

لقد كانت أحكاما متعلّقة بالرهن وبالنفقة وبأمور الزواج والأزواج، وأحكاما في ترشيد النفقة والمعيشة، وأحكاما حول الاعتداء على الغير، إلى غير ذلك من قضايا ذات العلاقة بالمجتمع.

ولعلّ النموذج الذي نقترحه عليكم وثيقة عثرنا عليها صادرة من مجلس عمّي سعيد كان الثميني حاضرا فيه، تتعلّق بأحكام التحجير مع تفصيل كثير من المسائل حول المحجور:

«الحمد لله وحده. قد اتّفق أهل العقد والحلّ من علماء خمسة قصور في شأن أحكام المحجورين حين رأوا إهمالهم أحيانا قد أفضى إلى النهب وأكل أموال الناس بالباطل، فرأوا أن يجعلوا لذلك حدّا ينتهي إليه حكمهم من أوّل الأمر إلى آخره. ومن ذلك متى رأى الأولياء من وليّهم سَفَهًا وتبذيرا لماله فيرفعون شكايتهم

إلى العالِم الناقد بفنون الأحكام...هذا ما اتّفقت عليه المشايخ وأولوا الأمر من المسلمين في روضة الشيخ أبي سعيد، منهم الشيخ الفاضل بابا بن محمّد والعلاّمة الشيخ عبد العزيز بن الحاج والشيخ موسى بن إسماعيل...وعلى آثرهم المقيِّد لذلك بإذن الجميع عمر بن صالح بن أبي القاسم، بتاريخ رجب 1202هـ».

الثميني والأحداث العامّة

إنّنا لا نزل مع الثميني وعصره، وإنّه ممّا عثرنا عليه ونحن ننقّب في تاريخ الثميني وعصره قصيدة تقع في 95 بيتا بخطّ الثميني نفسه، تتضمّن مدحا وتهنئة للقادة الأتراك المسلمين على انتصارهم على النصارى، وتصف المعركة ومقدّماتها ونتائجها. لقد كانت القصيدة بليغة دقيقة في الوصف، أرّخ للمعركة أنّها كانت سنة 1189هـ، وهو كذلك في بعض كتب التاريخ.

مطلعها :

إنّ طيفا زارني في المنام	من رشيق القدّ بدر التمام
من سليمى ذات فرع أتيغ	ذات ثغر مثل حبّ الغمام
ذي بريق رائق حول ريق	بارد عذب لذيذ اللثام
من لبرق شمته مستطيرا	من سليمى عند حال ابتسام
ذات عين مثل عين الغزال	إن رنت رمت فؤادي السهام
ذات خدّ فائق حسن ورد	في رياض الوجه يجلو الظلام
شامل للحسن صُنع حكيم	أتقن الأشياء ربّ الأنام

ثمّ يقول :

ذكر العهد القديم زمانا	من سليمى سجع ورق الحمام
دع سليمى والرباب وسلمى	واخترن مدح السريّ الهمام
ضيغم إرغام ضرغام ليو	ث السريّ دأبه وهو الحسام
نضر رايات الهدى في الأفاق	كسر قامات الردي بالهذام

فـــخـــر دين الله عدل عمـــاد   قهـــر دين الكفر ماحي الظلام

سيّـــد فـــاق ســـراة الأعاجم   جيّد في العرب عالي المقـــام...

ثمّ يقول :

قد أتاهم عسكر الروم روما   للجزائر بالجـــواري العظـــام

حامـــلات للنصارى الوفـــا   مـــائة أو هي تـــزيد التمـــام

عـــام تسع والثمـــانين بعد   مائـــة والألف جـــاء اللهام

لم تـــزل مذ أتت راسيـــات   بالجزائر نحو عسر صيـــام

عن نضال أو ضرام لـــنـــار   بـــل سكارى شاربين المدام

مـــع زهـــو بل ولهو وهول   كـــلّ حـــين تاركـــين المنام

والجـــزائر زُلزت ثمّ صارت   ذات أهـــوال وعضل ركام

واضطـــراب وانزعاج فظيع   واسوداد في الوجـــوه الوسام

فأتى الوادي فطَم على ذي   اعتـــلاء كالقـــرى والأكام

بـــعدما بايـــاتها أقبلـــت را   يـــاتها كالطـــير عند الغمام

جـــامعات للجنود احتشادا   حـــامـــلات للبـــنود الرقام

من قبـــائل الجبـــال وعرب   وســـراة الترك نِعْم الســـطام

راغبـــين في الجهاد احتسابا   طـــالبين رفع ديـــن السلام

وحقّا هو دين السلام والأمن لا دين الرعب والإرهاب.

آلام وآمـال

تعالوا أيّها الحضور لنختم مداخلتنا هذه بنصّين ناطقين، هما بخطّ الثميني يحدّثنا فيـــهما عـــن بعض أسباب التأليف عنده وعن أحوال عصره، وليكن الأوّل مـــن **التاج المنظوم من دُرر المنهاج المعلوم**، وليكن الثاني من كتاب **المصباح المقتبس من أبي مسألة وكتاب الألواح**.

ولنأت بالنصّ كاملا حتّى نستوعب جيّدا أسلوب الثميني ومضامينه وأحاسيسه التي ينشرها هنا وهناك، وبذلك نكون قد أحضرنا معنا الثميني في هذه الجلسة المباركة.

يقول الثميني في مقدّمة كتابه **التاج:**

«فإنّي لمّا ظفرت بما ظفرت به من أجزاء **منهاج الطالبين وبلاغ الراغبين** للشيخ ضياء الدين خميس بن سعيد العُماني عفى الله عنّا وعنه، وعن جميع المسلمين، على يد بعض الأفاضل، أكرمه الله، آمين، فوجدته كتابا فائقا، جامعا لكثير من المهمّات رائقا، ولغليل الصدور شافيا، ولمؤونة الملمّات كافيا، ولكنّه لما فيه من التطويل والتكرار قابل للتجريد والاختصار، صرفت عنان العناية نحو تحصيله، وشمّرت على ساق الجدّ في تلخيصه، واستنهضت الخيل والرِّجل إلى مقاصده، ووجّهت ركاب النظر تلقاء مراصده، وسريت بها في ظلم الليالي، حتّى ظفرت منه تلك المطالب، وفزت بعون الله سبحانه لنيل هاتيك المآرب، فطفقت اقتنص الدرّ من بحور معانيه، واستعطف المخدّرات المحتجبة في قصور مبانيه، فكانت تشير إليّ بالوصال في الحال، وبإدامته بفضل الله عزّ وعلا فيه وفي المآل، مع ما أنا أكابده من الأمراض وتراكم البلبال، وأعانيه من تفاقم المحن وتكاثر الأشغال، ومع الكِبَر وجمود القريحة، وخمود الفطنة بعد توقّد الطبيعة.

وقد تعطّلت من العلوم مواردها، [انتبهوا: تأمّلوا هذه الصورة الناصعة] وانسدّت وُجوه الطالبين مصادرها، واندرست أطلالها ومعالمها، وانطمست آثارها ومراسمها، وكنت في ذلك متى وجدت فرصة انتهزتها، وإذا بهرني ما أنا فيه استكنت دونها حتّى جاء -بحمد الله- ما طلبته يروق الناظرين، ويعجب الطالبين والمحصلين، مسمّيا له بـ: **التاج المنظوم من دُرر المنهاج المعلوم**، مضيفا إليه من غيره بعض الفوائد، موشّحا له بغرر الفرائد، طالبا من الله أن يصونه من تصحيف المصحفين [تأمّلوا أيضا هنا...] ومسخ الضعفاء الماسخين، كما وقع لغالب مصنَّفات المذهب لقلّة تعاطيها بالتدريس والمطلب. وينحصر في ستّة وعشرين جزءا...».

ولنكتف بهذا النصّ، فالزمن يداهمنا ولنترك **المصباح** للشيخ صدقي فإنّ محاضرته ترتكز عليه، فسنسمع الكثير إن شاء الله.

هذا بعض الذي تسنّى لي ذكره في هذا المقام، فشكرًا لكم جزيل الشكر على إنصاتكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مكانة الإمام الثميني في علم الكلام

الأستاذ الربيع ميمون
جامعة الجزائر

إنّ الإمام عبد العزيز الثميني من علمائنا الذين لهم في تاريخ فكرنا المكانة العالية بما له من مآثر جليلة في العلوم الإسلامية، وبما كان منه في حياته من الأعمال المتواصلة للإحاطة بها والتبريز فيها، وتعليمها بالطريقة المثلى، والتأليف فيها بكفاءة نادرة لا تكون إلاّ لمن بلغوا مقامه فيها، وإثرائها بما يحافظ على روح أصالتها، ويزيد في إشعاعها، وفي قدرتها على حلّ المشاكل التي تعترض المسلمين، في وقته والبعدِ بهم عن متاهات الضلال.

وبالفعل، فالإمام عبد العزيز الثميني من علمائنا الذين تركوا لنا ما يمكننا أن نهتدي به ممّا قاموا به -في حياتهم فوق هذه الأرض- من الأعمال المباركة، وممّا خلّفوه وراءهم من المؤلّفات الجليلة التي لا يستغني عنها علماء اختصاصاتها. فهو عالم عارف بمبادئ الأمور وغاياتها، وبأسرار هذا الوجود وإشاراته اللّدنّيّة.

لقد ألّف -حسب الأستاذ سالم الحارثي الذي قدّم لكتابه **معالم الدين**- أحد عشر كتابا هي في أصول الدين والفلسفة أو الفقه وأصوله أو الحديث وشرحه. وهي كتب كلّها ذات قيمة عالية عند علماء الإباضية وغيرهم من العارفين الذين سعدوا بالاطّلاع عليها منذ ظهورها إلى اليوم.

ومنها كتابه **النيل وشفاء العليل** الذي شرحه الإمام القطب الشيخ محمّد بن يوسف اطفيش -رحمه الله- (ت1914م) والذي هو المعتمد لدى علماء الإباضية في الفقه.

ومنها -وبالخصوص- كتابه **معالم الدين** في الفلسفة وأصول الدين. وهو كتاب لم يهتم العلماء به -على ما يظهر- لا لقلّة جدارة ولكن لأسباب يمكننا أن نرجعها في جملتها إلى ما آلت إليه حالة المسلمين الحضارية في عصره وبعده من الجمود والانحطاط.

هذا، ولقد تشرّفتُ بمعرفته، وسعدت بالاطّلاع عليه لمّا أتاني به الأستاذ عمر إسماعيل، وطلب منّي أن أشرف عليه ليحضّر رسالة عنه، فقبلت بدون تردّد لِما ظهر لي من قيمته العالية في علم

الكلام، ولِما ظهرت لي من قيمة صاحبه النادرة في معرفته بالعلوم الإسلامية، ومن قيمته الممتازة بين علماء المسلمين في زمانه، وعبر العصور.

لقد ولد رحمه الله بعد الإمام السنوسي (ت1490م)، والعلاّمة الدواني (ت1501م)، والشيخ إبراهيم اللقاني (ت1631م)، وسلسلة طويلة من علماء الإباضية نذكر منهم الإمام عبد الكافي الورجلاني، والإمام أبا يعقوب الورجلاني، والشيخ الجيطالي والشيخ الأفضلي والشيخ التلاتي.

وعاش رحمه الله في عصر الإمام محمّد بن عبد الوهاب (1703 – 1787م) والشيخ الإمام ابن حجّة الدهلوي (1114 – 1176هـ) و«إيمانويل كانط» (1724 – 1804م) الفيلسوف الألماني العظيم – من جهة– وقبل الأمير عبد القادر (1807 – 1883م)، والإمام جمال الدين الأفغاني (1839 – 1897م)، والشيخ محمّد عبده (1849 – 1905م) –من جهة أخرى– في بني يزقن التي وُلد بها سنة 1718م، وتوفّي بها سنة 1808م.

ولقد درس –رحمه الله– بها، وتبحّر في علوم زمانه ومكانه بها على مشايخها، وصار في عصره إمامَهُ في العلوم الإسلاميّة، إذ كان مَفْخَرَتَهَا، ورافعَ لِوَائها بجدارة وإخلاص، لا في بني يسجن النائية المجهولة فحسب ولكن على مستوى العالم الإسلامي كلّه، حتّى وإن لم يكن يسمع به سوى بني جلدته.

لقد كان المسلمون في زمانه خارج ركب الحياة، ولذلك فإنّهم لم يكونوا يعرفون شيئا عنه، ولا عن غيره، ولا عن أنفسهم. ولقد كان هو نفسه، وفي زمانه المظلم، مثل الحلقة الذهبية اليتيمة الفريدة التي تلمع وحدها داخل سلسلة علماء الإسلام الذهبية عبر العصور.

إنّه كان جبلا شامخا في علوم النقل والعقل، وكان فيها خير خَلف لخير سلف. وأمّا ما تركه لنا من أعمال في علم الكلام فهو من أحسن ما يمكننا أن نعتمد عليه لنتبيّن قيمته العلميّة الساميّة، ودوره العظيم في المحافظة على تراث علماء الأمّة الأعلام، ودروه الجليّ في التمهيد والعمل والتنظيم والتأسيس حسب طاقته ودرايته، للخروج بالمسلمين من متاهات تخلّفهم إلى رحاب الوعي والعلم والتقدّم والعزّة ﴿وَلله العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَللمُومِنِينَ﴾ (المنافقون، الآية: 8).

وبالفعل فعلم الكلام له المكانة العليا في نظره –رحمه الله– بين علوم المسلمين لأنّه كما يقول، مبنى الشرائع والأحكام، به يُرتَقى في الإيمان من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان. وذلك هو السبب

للهدى والنجاح، والفوز في الدارين بالفلاح، وهو في أيّامنا (أي في زمانه) قد اتُّخِذ ظهريا، وصار طلبه عند الأكثرين شيئا فريًّا» [على الرغم من أنّه] الأساس الذي تبنى عليه العلوم الشرعية، والسُّلَّمُ الذي يرتقى به إلى ذروة الإيقان، والطريق إلى الهدى والنجاح والفوز في الدارين بالفلاح.

إنّ هذه هي رؤية الإمام الثميني لِعِلْم الكلام في القرن 12 للهجرة، أو القرن 18 للميلاد. وهي -أيضا- رؤية حجّة الإسلام، الإمام أبي حامد الغزالي في القرن الخامس للهجرة، والقرن الحادي عشر للميلاد، فكانت منه تلك الثورة العارمة على انحرافات عصره كلّها، وكان منه ذلك الإحياءُ اللّدنّيُّ العظيم لعلوم الدين، إحياءً لا يزال ينتظر من علماء المسلمين كلّهم إحياءً ثانيا لها. ويظهر لنا أنّ ما فهمه الإمام الغزالي في عصره، من حالة المسلمين المزرية ومن احتياجها للعلاج الناجع، هو ما فَهِمَهُ علماء الأشاعرة من بعده، وفهمه الإمام الثميني من بعدهم.

وبالفعل، فهو ينتسب إليهم حين يتعرّض في كتابه **المعالم** لتعريف علم الكلام، وبيان موضوعه، وفائدته، ووجه تسميته بالكلام، وانقسامه إلى كلام للمتقدّمين أو القدماء، وكلام للمتأخرين أو الحكماء المحدثين، ويصرّح بأنّه من طريقة هؤلاء، ويصرّح بأنّ علم الكلام هو أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعية، ورئيس العلوم الدينيّة وأنّ غايته الفوز بالسعادات الدينيّة والدنيويّة، ونظرا إلى هذا، فهو عِلْمٌ لا بدّ منه، ومن الواجب أن يكون له علماؤه، بالحقيقة، في الأمّة في كلّ عصر. والإمام الثميني واحد منهم. وهو مِمَّن يتفتّحون إلى ما هو لدى إخوانهم من علماء الأمّة، ويأخذون عنهم، وإن كانوا على غير مذاهبهم.

هذا، وعلماء الكلام المتأخّرون، وهم كلّهم أشاعرة، هم الذين ساروا وراء الإمام الغزالي في قوله بأنّ المنطق اليوناني لا بدّ منه لدراسة العلوم عقلية كانت، أو شرعية لأنّه لا علاقة له بآلهيات اليونان أو فلسفتهم، ولأنّ قوانينه تعصم الفكر من الخطإ.

لقد كان علماء الكلام من قبله يعتمدون في عرضهم للعقائد الدينيّة، أو دفاعهم عنها على نصوص القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة ومعطيات العقل السليم، والمقدّمات التي كانوا يتسلّمونها من خصومهم لدى مناظرتهم لهم، ولكنّهم لم يكونوا يعتمدون على المنطق لا لكونهم يجهلونه لأنّه كان شائعا بينهم، ولكن لرفضهم له مع رفضهم لفلسفة اليونان، ولما ظهر لهم فيه من خطر على الدين والعقيدة.

لقد بدأت هذه العلوم الفلسفية تنتشر بين المسلمين في القرن الأوّل للهجرة، ولكنّ علماء السلف لم يأخذوا بها، وأَخَذَ بها أئمّة الاعتزال، وصاروا يعتمدون عليها في دراستهم للعقائد الدينيّة والدفاع عنها ضدّ الملاحدة، ولكنّهم لم ينجحوا في مسعاهم، إذ ضلّوا بسبب استعمالهم لها في معالجة قضايا كثيرة، وكان منهم أن وصل بهم الحال إلى التعدّي على مخالفيهم في الرأي، واضطهادهم في وقت ما بكلّ ما أوتوا من قوّة الحكم والسلطان، وهم علماء أجلّة.

هذا ولقد كان الإمام الأشعري منهم، ولكنّه انفصل عنهم، وصار يردّ عليهم أقوالهم بالنقل والعقل وكان منه أن أقام أمامهم لِعِلْمِ الكلام قواعدَهُ، فتبعه النّاس أفواجا وكثر أتباعه، وصارت السيادة العلميّة لهم في عصورهم.

ومن هؤلاء الإمام أبو بكر الباقلاني (ت1013م) الذي هذّب طريقته، ووضع لها المقدّمات العقليّة التي تتوقّف عليها الأدلّة والأنظار، ونشرها بين النّاس فاستحسنوها، وهي طريقة بديعة، ولكنّها لم تكن كما يقول ابن خلدون كافية للإيفاء بالمطلوب دائما لأنّ صور الأدلّة فيها لم تكن على الوجه القناعي دائما، وكانت لسذاجة القوم وبُعدهِم عن صناعة المنطق كثيرا ما توقعهم في الأخطاء، وهم لا يشعرون. وبالفعل، فلقد كانوا يرون مثلا أنّ بطلان الدليل يتبعه بطلان المدلول، وهو رأي غير صحيح، ولا يقع فيه إلاّ من يجهل المنطق، أو لا يحيط بقواعده.

وهو ما انتبه إليه الإمام أبو حامد الغزالي ورأى فيه بعْدًا عن الجادّة، وعن الطريقة المثلى التي ينبغي الاعتماد عليها في معالجة الأمور، دينيّةً كانت أو غيرها فقال كلمته المشهورة:«من لا معرفة له بالمنطق فلا يعوّل على علمه». وكان من نتائج اتّخاذه لهذا الموقف ظهور طريقة علماء الكلام المتأخرين على يديه، وهي طريقه أخذ بِهَا مَنْ بعده من جهابذة علماء الأمّة.

هذا، ولقد صارت تعرف من بعده ومع الإمام الفخر الرّازي الذي له الباع الطويل في تنظيمها وإثرائها والارتقاء بها، بالحكمة المحدثة، وصار يعرف هو بما قدّمه لها بسيّد الحكماء المحدثين كما يقول الشيخ ابن أبي أصيبعة في **عيونه**.

إنّ طريقة المتكلّمين المتأخّرين أو الحكماء المحدثين تمتاز كما نرى عن طريقة المتكلّمين القدماء باعتمادها على المنطق في معالجة القضايا زيادة على النصوص الدينيّة الثابتة. وهي تمتاز عنها، أيضا، بمهاجمتها العنيفة للفلسفة عن معرفة عميقة واسعة بها، وبمهاجمتها للفلسفة الإلهية الأرسطية منها

بالخصوص، وبإلزامها بأسلحتها ذاتها، أو بالحجّة الدامغة لتبوح بحقيقتها إن كانت لها حقيقة، أو لتبوح بعجزها وأخطائها إن لم تكن لها إلاّ هذه. وتمتاز عنها في النهاية بدراستها للعلوم الدقيقة والتجريبية والإنسانية، والاهتمام بها للاعتماد على مسلّمَاتها، والانتقال بها ممّا هي عليه إلى أحسن منه للارتقاء بالمسلمين والتقدّم بهم على أسس علميّة، وتوفير زائد من الرفاهية لهم، ولِمُعَالَجَةِ مشاكل ساعتهم بما يقدّم لها الحلول الناجعة التي يتطلّبها عصر كلّ منهم لأنّ لكلّ عصر مشاكله التي لا تعرفها العصور السابقة لأنّها خاصّة به.

وهو ما يشير إليه الإمام عبد العزيز الثميني في كتابه **المعالم** حين يقول:«وَلَمَّا نقلت الفلسفة إلى العربية، وكانت قبلُ يونانية، وناقلها الفارابي، وخاض فيها الإسلاميون، حاولوا الردّ على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة فخلطوا بالكلام كثيرا من الفلسفة ليتحقّقوا مقاصدها فيتمكّنوا من إبطالها، واستمرّوا على ذلك إلى أن أدرَجُوا فيه معظم الطبيعيّات والإلهيات، وخاضوا في الرياضيات حتّى كاد أن لا يتميّز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات [...] وقد سلكنا طريقتهم في ذلك [...] هذا، وما نُقِلَ عن بعض المتقدّمين كالشافعي من الطعن فيه والنهي عن تعلّمه هو محمول على القاصر عن تحصيل اليقين، والقاصِدِ إلى إفساد عقائد المسلمين، والخائِضُ فيما لا يُحتّاجُ إليه من غوامض الفلسفة، وإلاّ فكيف يتصوّر النهي عمّا هو أصل الواجبات وأساس المشروعات».

إنّ الإمام عبد العزيز الثميني –رحمه الله– ينتسب صراحة في هذا النصّ إلى علماء الكلام المتأخّرين أو الحكماء المحدثين، ويَتَبَنّى طريقتهم، ويبيّن أن نهي علماء الأمّة المتقدّمين كالشافعي ومَن بعده، عن تعلّمه، غير موجّه إلى العلماء بالحقيقة، ولكن إلى المتعيلمين المغرورين الذين لا يضيرهم أن ينتَسِبُوا إلى المقامات العلميّة العالية، وهم جدّ بعيدين عنها.

هذا، ونظرا إلى أنّه ينتسب إليهم، فإنّه يَتَبَنّى أيضا طريقة تأليفهم. فمخطّط كتابه هو مخطط كتبهم، وطريقة عرضه للقضايا هي طريقة عرضهم، ومآخذه هي مآخذهم، وتفتّحه هو تفتّحهم، وغايته هي غايتهم مع ما يمتاز به عنهم من أسلوب وجدل ومنطور، ورؤية للمسائل والقضايا، وما يرميه عليها من أنوار وظلال.

وهكذا، فإنّنا إذا رجعنا إلى كتابه **المعالم**، فإنّنا نجده يتركّب بعد خطبته من أربعة معالم يتكوّن كلّ منها من مراصد يحتوي كلّ منها على عدد محدود من المقاصد.

وهي معالم يتعرّض في المعلم الأوّل منها لمقدّمات الفنّ، وفي الثاني للمعلومات أو الموجودات، وفي الثالث إلى الإلهيات، وفي الرابع إلى النبويات وما يتعلّق بها.

ويمكننا أن نرجع من بعد هذا إلى «محصل أفكار المتقدّمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلّمين» للفخر الرازي لنرى أنّه يتركّب هو الآخر من مقدّمةٍ وأربعة أركان أوّلها في مقدّمات الفنّ، وثانيها في المعلومات وثالثها في الإلهيات، ورابعها في النبويات، ولنرى أنّ كلّ ركن منها يتكوّن إمّا من مقدّمات أو مسائل أو أقسام.

فالكتابان متشابهان في بنيتهما. وهما -أيضا- متشابهان كثيرا فيمن يذْكُرَانِه من العلماء والحكماء والمتكلّمين للأخذ بآرائهم أو بحثها أو رفضها. فالشكّاك، والسوفسطائيون والدهرية والطبائعيون والإلهيون وقدماء المتكلّمين من السلف، والمبرِّزون من علماء الجزائر أمثالي الإمام السنوسي والإمام الأفضلي، وكذلك الإمام أبو حامد وأتباعه، وعلماء الديانات والفرق والملل، كلّهم يحظون بالذِّكر فيهما. وإذا كان هذا يدلّ على شيء فإنّه يدلّ على أنّ فكر علماء الجزائر بالحقيقة هو فكر يحيط بما للبشرية في عصورهم من آراء ومذاهب وأنظار في مجالات العلم المختلفة، وبالتالي فهم علماء من عصورهم، وفي مستوى مشاكل عصورهم وأمكنتهم، وهم، أيضا علماء لو كان لهم الخلف الذين أهل له لَمَا عرَف المسلمون كلّهم اليوم ما هم عليه من التخلّف والجمود والتهميش والتّيهَان، على الرغم من أنّ لهم كتاب الله وسنّة رسوله.

وبالفعل فلقد أفْلَتَ الزّمام من أيديهم في ميادين الحياة كلّها، وصاروا أتباعا لغيرهم، وصار بعضهم عدوًّا لبعض، وصار الناس لا يعيرهم أيّ قيمة ولا فضل، فهم ليسوا أقلّ إنسانية من غيرهم، ولكن نسوا الله ورسوله ودينه فأنساهم أنفسهم. ولفظتهم الحياة لأنّهم صاروا غير أهل لها، فابتعدوا عن الساحة، وضلّوا في متاهات الجهل والفرقة والبدعة والخرافة، وفقدوا كلّ شيء كان لأسلافهم من العلوم والصناعات والفنون والأخلاق والسلوك، وفقدوا حتّى عقيدتهم مع أنّها مبنى عزّهم وأساسُ رشدهم، ومنارةُ اهتدائهم، ودليلهم إلى كلّ مجد وخير وكلّ شيء بالنسبة إليهم.

وما حرص الإمام الثميني، وما حرص مَن قبله من قدماء المتكلّمين ومتأخّريهم على أن يعتني المسلمون بعقيدتهم، وأن يحافظوا عليها سليمة سويَّةً، وأن يتعلّموها بأساليب عصورهم، وأن يبذلوا

أقصى جهودهم لعرضها باستمرار، وبجدّ واجتهاد على حقيقتها، بعيدة عن كلّ تشويه، والدفاع عنها بما يجعلها تسمو وتتغلّب على كلّ العقائد المنحرفة، وتقضي عليها فيما بينهم وفي العالم كلّه.

إنّ هذا هو ما يدعو الإمام الثميني المسلمين إليه في عصره، ومن بعده بكتابه **المعالم** وهو ما يسمح لنا بأن نرى فيه جيلا شامخا بين علماء الأمّة عبر العصور، وفي عصره، ومنطلقا لا غنى عنه للنهوض بالمسلمين عن طريق إحياء علم الكلام بالحقّ وعرضه للنّاس بالطريقة المثلى التي يقتضيها زمانهم ومكانهم.

إنّه من كبار علماء المسلمين في عصره، وهو من كبار علماء المسلمين في علم الكلام، عبر العصور، ومن كبار علماء الكلام المتأخّرين أو الحكماء المحدثين.

وهو من كبار علماء الدين الذين هم من عصورهم ولعصورهم، ومن كلّ العصور ولكلّ العصور.

وهو من كبار علماء الجزائر الذين تفاخر بهم الجزائر في أيّام المفاخرة.

ولهذا فمن الواجب على فتيات وفتيان بني يزقن والجزائر كلّها أن يعرفوه وأمثاله، وأن يدرسوا تراثه وأن يبحثوا فيه وعنه، وأن يؤلّفوا فيه وأن يتجاوزوه حتّى يكونوا أهلا له ولأسلافهم لأنّ فيهم من أمثال الثميني الكثير.

إنّ "بني يزقن" التي وُلد بها قرية مباركة، ويجب أن تكون كذلك على مرّ العصور.

ولعلّ تنظيم هذا الملتقى، لدراسة ما كان منه في حياته من أجل العلوم الإسلامية لَبشارَةٌ بعودة الروح لتراث الجزائر العظيم في هذه الربوع المباركة، وعودة الجزائر للريادة العلمية التي كانت لها في الماضي قبل الإسلام، ومن بعده. وهي ريادة للإمام عبد العزيز الثميني نصيب الأسد فيها.

ومن واجب فتيات وفتيان بني يزقن والجزائر أن يعرفوا هذا، لأنّه مفخرة من مفاخر بلادهم، ومن الواجب عليهم أن يكونوا أهلا لها لا بالادّعاءات، ولكن بالعلم والسبق فيه، والحياة والتقدّم بأنواره.

هذا، ويوفّقنا الله إلى ما فيه خيرنا ورضاه عنّا، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

اعتناء الشيخ عبد العزيز الثميني رحمه الله بتعليم الحساب

ع.م. زروقي – الجزائر

احتاج الإنسان بفطرته منذ القِدم إلى إحصاء أشيائه وعدّها، فأدّت هذه الحاجة الجِبِلِّـيّة إلى أن استنبط الناس نُظما للعدّ وقواعد للحساب. وكما هي حاجة المجتمعات البشرية في مختلف أزْمانها وعلى مختلف نُظمها الاقتصادية والعَقَدية قديما وحديثا، فإنّ المجتمعات الإسلامية احتاجت إلى خوارزميات الحساب التي لا غِنى عنها لاستخراج المجاهيلَ العارضة في الأغراض الحياتية المختلفة، كالتجارة والصناعة والطب والزراعة والبناء وتعشير الأموال وتخميس الفيء وحساب الزمن وتحديد جهة القبلة وتعيين المسافات بين المدن ورصد الأهلّة ومطالع النجوم. ولعلّ أبرز ميدان يحتاج فيه المجتمع الإسلامي إلى الحساب الدقيق هو المعاملات المالية التي تستوجب استبراء الذمم من حقوق الغير مهما دقّت كالقطمير والنقير، كما أنّ حساب الفرائض والوصايا يتطلّب درْبة عالية في تقنيات الحساب العددي بالصحيح وبالكسور، وقد يرقى الفرضي إلى استعمال تقنيات جبرية، وحتّى هندسية أحيانا. ونحسب أنّ الصناعة الفرضية كانت إحدى الأغراض المهمّة لتعلّم الحساب وتعليمه وممارسته في دار الإسلام، ولذلك فقد استفرغ الفقهاء والمربّون جهودهم في التربية والتعليم، كما استفرغ الفرضيون والحُسّاب مواهبهم في استنباط طرائق لتبسيط الحساب وتيسير تعلّمه.

ومضمون النّظْم العددي للشيخ عبد العزيز الثميني يندرج في هذا الباب، فقصيدته التعليميّة تدرّب المتعلّمين على إيجاد بعض الخواصّ العددية، وهي: حساب مجاميع عدّة أعداد طبيعيّة على تواليها وتوالي مربّعاتها ومكعّباتها ثمّ على توالي أفرادها وتوالي مربّعات الأفراد ومكعّباتها ثمّ توالي أزواجها وتوالي مربّعات الأزواج ومكعّباتها؛ هذا المضمون يكشف لنا عن اطّلاع الشيخ على قدر معتبر من المكونات العددية، وتكشف لنا منهجيته التحليليّة في عرض ذلك المضمون عن مساهمته في تيسير تعليمها وتعلّمها وفاقا للمدرسة الرياضية المغربية التي يدلّنا استعماله لبعض مصطلحاتها على انتمائه إليها، كما أنّ تعبيره الشعري عن تلك المعاني العددية الدقيقة يدلّ قطعا على تضلّعه في لغة

الوحي وتطويعها للتعبير. إنّ تعرّض الشيخ لهذه القضايا العددية «المتقدّمة» يسمح لنا بـأن نفـترض «على ضوء تصوّرنا للصرح الرياضي ذي البنية المرتّبة» أنّه كان مطّلعا على مفاهيم عددية أخرى غير هذه التي بين أيدينا. أفتؤدّي البحوث في تراثنا العلمي إلى اكتشاف مساهمات أخرى له؟ وبصورة أعم: هــل من بحوث تؤدّي إلى رفع الحجب عن إسهامات علمائنا وعن فصول هامّة نجهلها من تراثنا؟.

حساب التوالي عند الشيخ عبد العزيز الثميني

خصّص الشيخ رحمه الله قصيدته لحساب المجاميع التالية:

- $\dots\dots\dots + 3 + 1 \;/\; \dots\dots\dots + 4 + 2 \;>\; \text{ن} + \dots\dots\dots\ 3 + 2 + 1$
- $\text{ن}2 + \dots\dots\dots + 6 + 4 + 2$
- $(1 - \text{ن}2) + \dots\dots\dots + 5 + 3 + 1$

ثمّ حساب مربّعات هذه المجاميع ومكعّباتها.

1) وفي البداية خصّص الأبيات [1و2و3و4و5] لحســاب المجمــوع الأوّل:

$\text{ن} + \dots\dots\dots\ + 3 + 2 + 1$

منطلقا من المثال المحسوس 1+2+3+4+5+6+7+8+9+10

وهو المثال الذي ضربه ابن منعم المغربي (ت626 / 1228) في كتابه **فقه الحساب:**

العمل: أخذ ابن منعم العدد الأخير 10 الذي سمّاه المنتهى إليه وأضاف إليه واحدًا، وأخـذ نصفه

$$\begin{array}{r} 10 \\ 1\ + \\ \hline 11 \end{array}$$

نصف المنتهى إليه هو $5 = \frac{10}{2}$

(نصف المنتهى إليه) × (المنتهى إليه واوحد) = 5×11=55

إذن: $(1 + 10)\ \frac{10}{2} = 10 + \dots\dots + 3 + 2 + 1$

وعموما: $(1 + \quad)\ \frac{\text{ن}}{2} = \text{ن} + \dots\dots + 3 + 2 + 1$

وهذا هو مجموع ن حدًّا من متوالية حسابيّة حدّها الأوّل 1 وأساسها 1

2) ثمّ خصّص الشيخ الثميني الأبيات [6 و7و8] لحساب مجموع مربّعات الأعـــداد الطبيعيّـــة على تواليها. أي من العدد 1 إلى العدد 10:

$$1^2 + 2^2 + 3^2 + \dots\dots + 10^2$$

مستعملا نفس المثال الذي استعمله ابن المنعم وهو:

$$1^2 + 2^2 + 3^2 + \dots\dots + 10^2 = \underbrace{(10+\dots\dots+3+2+1)}\times\left(1 \times \frac{1}{3} + 10\frac{2}{3}\right)$$

$$= 55 \times \left(\frac{1+10\times 2}{3}\right)$$

$$= 55 \times \frac{21}{3}$$

$$= 55 \times 7 = 385$$

إذن: $1^2 + 2^2 + 3^2 + \dots\dots + 10^2 = \frac{10}{2} \times (1+10) \times \frac{(1+10\times 2)}{3}$

$$= \frac{(1+10\times 2)(1+10)\,10}{6}$$

وبصفة عامّة: $1^2 + 2^2 + 3^2 + \dots\dots + \text{ن}^2 = \frac{(1+\text{ن}\,2)(1+\text{ن})\,\text{ن}}{6}$

ملاحظة: وظّف ابن البنا المراكشي (ت. 721هـــ/1321م) مجمـــوع مربّعـــات الأعـــداد الطبيعيّة في معرفة كون عدد طبيعي ما هو تامّ أو ناقص أو زائد كما يلي:

إذا كان المجموع $\text{مج} = 1^2 + 2^2 + \dots\dots + \text{ن}^2$ عددا أوّليّا

فإنّ العدد $\text{ع} = (1^2 + 2^2 + \dots\dots + \text{ن}^2) \times 2^{\text{ن}}$ تامّ.

والعدد $\text{ع}^{+} = (1^2 + 2^2 + \dots\dots + \text{ن}^2) \times 2^{\text{ن}+1}$ عدد زائد.

والعدد $= (1^2 + 2^2 + \dots\dots + \text{ن}^2) \times 2^{\text{ن}-1}$ عدد ناقص.

وكذلك أفادنا ابن البنا بأنّ مجموع مربّعات الأعداد يُنتفع به تركيب الكلمات الثلاثيّـــة من مجموعة حروف المعجم مثل الإجابة عن مسألة «كم كلمة ثلاثيّة في حروف المعجم» أي مـــا هو عدد المتوافقات الثلاثيّة المكوّنة من بين 28.

هذا العدد المطلوب هو $\binom{28}{3} = \frac{26 \times 27 \times 28}{2 \times 3} = 3276$

3) وبعد هذا خصّص الشيخ البيتين [9 و10] لحساب مجموع مكعّبات الأعداد الطبيعيّة على تواليها.

$$1^3+2^3+3^3+\dots\dots+10^3=\left[(1+10)\,\frac{10}{2}\right]^2$$

إذن $1^3+2^3+3^3+\dots\dots+\text{ن}^3=\left[(1+\ \ )\frac{\text{ن}}{2}\right]^2=(1+\text{ن})^2\frac{\text{ن}}{4}$

وهنا عرّف الشيخ الثميني مكعّب عدد بأنّه ضرب في نفسه ثمّ في نفسه.

ومجموع المكعّبات عنده هو مربّع مجموع الأعداد أي

$$1^3+2^3+3^3+\dots\dots+\text{ن}^3=(1+2+3+\dots\dots+\text{ن})^2$$

4) خصّص الأبيات [11 و12 و13] لحساب مجموع الأزواج أي مجموع الأعداد الزوجيّة:

$$2+4+6+\dots\dots+2\text{ن}$$

وعيّنه بأن زاد للمنتهى إليه 2 وضرب نصف الحاصل في نصف المنتهى إليه، أي:

$$2+4+6+\dots\dots+2\text{ن}=\frac{2\text{ن}}{2}\times\frac{(2\text{ن}+2)}{2}$$

$$2+4+6+\dots\dots+(2\text{ن})=\text{ن}(1+\text{ن})$$

5) خصّص البيتين [14 و15] لحساب المجموع

مربّعات الأزواج، أي: $2^2+4^2+6^2+\dots\dots+(2\text{ن})^2$

$$2^2+4^2+6^2+\dots\dots+(2\text{ن})^2=[2+4+6+\dots\dots+(2\text{ن})]\times\left[(2\text{ن})\,\frac{2}{3}+1\times\frac{2}{3}\right]$$

$$=\text{ن}(1+\text{ن})\times\frac{2}{3}(1+2\text{ن})$$

$$=\frac{2}{3}\,\text{ن}\,(1+\text{ن})\,(1+2\text{ن})$$

6) خصّص البيت [16] لحساب مجموع مكعّبات الأزواج، أي:

$2^3+4^3+6^3+\dots\dots+(2\text{ن})^3$ بضرب ضعف مجموع الأزواج في مسطّح نصف المنتهى إليه وما بعده.

$$2^3+4^3+6^3+\dots\dots+(2\text{ن})^3=2\,[2+4+6+\dots\dots+2\text{ن}]\times\frac{2}{\ }\times(1+\frac{2\text{ن}}{2})$$

$$=2\text{ن}(1+\text{ن})\times\text{ن}\times$$

$$2^3+4^3+6^3+\dots\dots+(2\text{ن})^3=2\,\text{ن}^2\,(\text{ن}+1)^2$$

7) خصّص البيتين [17 و18] للجمع على توالي الأفراد

$$1+3+5+\dots\dots+(2\text{ن}-1)$$

فعيّن هذا المجموع بحسب قانون مجموع ن حدّا من متواليّة حسابيّة. فأضاف الحـــدّ الأوّل وهو "1" إلى الحدّ الأخير "الغاية" وهي ($2\text{ن}-1$) وضرب الحاصل بنصف عدد الحدود وهو ن .

$$1+3+5+\dots\dots+(2\text{ن}-1)=\frac{\text{ن}\,[(2\text{ن}-1)+1]}{2}$$

$$=\frac{\text{ن}\times 2\text{ن}}{2}$$

$$=\text{ن}^2$$

8) وخصّص البيتين [19 و20] لجمع مربّعات الأفراد

$$1^2+3^2+5^2+\dots\dots+(2\text{ن}-1)^2$$

الغاية هي ($2\text{ن}-1$) فالتالي لها هو $(2\text{ن}-1)+1=2\text{ن}$

والتالي لتالي الغاية هو ($2\text{ن}+1$)

فضرب $\frac{1}{6}$ الغاية في مسطّح التاليين لها.

وهو نفس العمل الذي عمله ابن منعم في فقه الحساب.

إذن: $1^2+3^2+5^2+\dots\dots+(2\text{ن}-1)^2=\frac{(2\text{ن}-1)}{6}\times(2\text{ن})\times(2\text{ن}+1)$

$$=\frac{1}{3}\,\text{ن}\,(2\text{ن}-1)\,(2\text{ن}+1)$$

9) والبيتان [21 و22] يخصّان جمع مكعّبات الأفراد :

$$1^3+3^3+5^3+\dots\dots+(2\text{ن}-1)^3$$

$$1+3+5+\dots\dots+(2\text{ن}-1)=\text{ن}^2$$

فضعف مجموع الأفراد إلاّ واحدا هو 2ن^2-1

فمجموع مكعّبات الأفراد هو حاصل ضرب ن^2 في (2ن^2-1)

$$1^3+3^3+5^3+\dots\dots+(2\text{ن}-1)^3=\text{ن}^2\,(2\text{ن}^2-1)$$

10) خصّص الأبيات [23 و24 و25 و26] للجمع بالتفاضل وهو في اصطلاح رياضيي المغرب نوعان: كيفي وكمّي التفاضل الكيفي هو المتواليات الهندسيّة، وهو مقصود الشيخ الثميني.

والتفاضل الكمّي هو المتواليات الحسابيّة.

والتفاضل الكيفي يفيد في ملء صفرة الشطرنج وفق متواليات هندسيّة (يٍ) حدّها الأوّل 1 وأساسها 2.

8	7	6	5	4	3	2	1
			$(2^2)^2$		2	1+1 = 2	$1 = 2^0$

- إذا بدأ بالعدد 1 فإنّ العدد الذي يكون في أيّ بيت هو مجموع ما في البيوت السابقة له + 1.
- إذا كان التفاضل الكمّي باثنين وبدأنا من 1 فإنّ $1+3+5+\dots\dots+\text{ن} = \text{ن}^2$

$2+4+6+\dots\dots+ \quad = \text{ن}(\text{ن}+1)$



الثميني من خلال كتاب:
الأفعال المنجية من المهلكة

الأستاذ: إبراهيم محمّد طلاي

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله تعالى والثناء عليه وهو أهل لكلّ حمد وثناء، قَدَّر فهدى، وأنعم فأعطى، خلق فسوّى، وهدى من شاء إلى صراط العزيز الحميد.

والصلاة والسلام على هادي الأمّة نبيء الرحمة، مَن بعثه الله مبشّرا ونذيرا وسراجا منيرا، سيّدنا محمّد ﷺ وعلى آله وصحابته، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيّها المشايخ الأجلاّء والسادة الأعزّاء، محبّي العلم والثقافة النبيلة، قبل حديثي إليكم -أيّها الإخوة المؤمنون- لا يسعني إلاّ أن ألهج بآيات الشكر والثناء، وأنوّه بكلّ اعتزاز بشباب هذه الجمعيّة الجادّة -الجمعيّة القطبية- وبأعمالها النبيلة وجهودها المتواصلة لخدمة الثقافة وتنوير المجتمع.

وما هذه النفحات العطرة، والأجواء الثقافية، التي نحياها ونتنفّس أريجها في هذه الأيّام عن حياة الشيخ الجليل عبد العزيز الثميني وعن فكره وآرائه وأعماله في خدمة الشريعة الإسلامية، وهذا المجتمع الدؤوب إلاّ دليل على نشاط الجمعية، وأعمالها الجادّة رغم البيئة المثبّطة والطبيعة القاسية في هذه الربوع والوسائل القليلة غير المتوفّرة، لولا همم الرجال وعزائم الشباب، جزاهم الله خيرا وسدّد خطاهم.

أيّها السادة حديثي إليكم في هذه الأمسية عن الكتاب الأخير في الموسوعة الفقهية للشيخ الثميني المعروفة بـ«كتاب النيل وشفاء العليل» هذا الكتاب الأخير في موسوعته الذي عنون له بـ**الأفعال المنجية من المهلكة** وهو مختصر لكتاب الشيخ أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن بكر الريغي النفوسي الأصل المتوفّى سنة 504هـ المعروف بكتاب **تبين أفعال العباد** كما سيأتي الحديث عنه مفصّلا بحول الله.

والمتحدّث عن فكر الثميني لا يستطيع أن يغفل تلك الموسوعة الفقهية المعروفة بـ**كتاب النيل** وما تضمّنته تلك الموسوعة من نفائس الأحكام الفقهية، واجتهادات الأئمّة وآراء علماء الفقه الإسلامي على مختلف مذاهبه، وخاصّة علماء الإباضية.

وقد ألّفه على طريق الإيجاز والاختصار، والضغط ورَصّ الأسلوب، ليكون شبه رتيمة في يد الطالب تساعده على استظهاره، وهي طريقة في التأليف عرفتها العهود التي عاشها الشيخ، عهود الضعف المتأخّر من تاريخ الثقافة الإسلاميّة، ولا يخفى علينا أنّ الشيخ عاش في القرن الثاني عشر من الهجرة.

يقول الشيخ عبد الرحمان بكلي -رحمه الله- في مقدّمة كتابه **النيل**:«كان القرن الثاني عشر والثالث عشر فترة ركود، بل انتكاس بالنسبة للحياة العلمية بميزاب، ضؤل شعاعه، وركّ حبله لولا أن تدراكه لطف الله فأطلع في سمائه بدرا منيرا أرسل أشعّته على زواياه فأنارها، ذلك هو الشيخ أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي اليزقني، شيخ عبد العزيز الثميني المتحدَّث عنه».

يقول الشيخ اطفيش في حقّ هذا الشيخ يحي بن صالح الذي كان كالغيث بعد محلّ، وكالبدر في ليل دامس:

وكم من فنون العلم أحيا لنا يحيى	فصارت أقاصيه لدنيا هي الدنيا
وكم جاهل تعلّم العلم عنده	فصارت شريفا فائزا باليد العليا
عليكم قرار العلم نحو ابن صالح	فأعجازه أعيت صدوركم إعياء

نعود إلى الحديث عن الشيخ عبد العزيز الثميني واختصاره لكتاب **تبيين أفعال العباد** وإدخاله ضمن موسوعة الفقهية **النيل**، أيّها السادة كأنّي بالشيخ عبد العزيز عند فراغه من كتابة هذه الموسوعة التي ضمّت مختلف فروع الفقه من الطهارات والعبادات والمعاملات، على مختلف فروعها، والأحكام والأقضية والديات والجروح والحقوق على مختلف صورها.

كأنّي به وقد أنهى هذه الموسوعة التي يعتزّ بها أيّما اعتزاز وقد قال في مقدّمة الكتاب: وسمّيته **النيل** رجاء من الله ﷻ أن ينفع به كلّ من قرأه، أو حصله، أو سعى في شيء منه كلّ وقت من بعد عصره كما نفع بالنيل كثيرا وإن من غير مصره.

كأنّي به وقد شعر أنّ هذا السِّفر الجليل ينقصه شيء ممّا أوجبه الله وأمر به، أو نهى عنه وحذّر منه لم يتعرّض له في هذا الكتاب، وهو جانب التخلُّق بالآداب الإسلامية وتقويم السلوك الإنساني وهو شعور في أعلى قمّة من تفهُّم الأحكام الإسلامية. قال ﷺ: «إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق».

فهل ينفع المرءَ العابدَ الصائم القانت عبادتُه ومعرفته بالأحكام الشرعية إذا كان قاسي القلب فظًّا غليظا؟ وهل يغني المسلمَ معرفتُه بالحلال والحرام إذا كان ينغمس في مستنقع من النميمة أو الجهالة أو التعصّب المقيت أو الكبرياء والتجبّر.

حقًّا هذا جانب هامّ جدًّا —جانب الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم- كثيرا ما أغفلته الكتب الفقهية التي تعنى بالحديث عن الأحكام الشرعية من الحلال والحرام وغيره.

ولدينا أمثلة لذلك، فالكتاب النفيس في الفقه الإسلامي: **بداية المجتهد** لابن رشد، لا نجده تعرّض لهذا الجانب، وكتاب **المغني** لابن قدامى مثلا مع جلالة قدره وسعة محيطه وهو موسوعة هامّة في الفقه الحنبلي خلا من هذا الجانب.

ولا أعرف من العلماء —حسب معرفتي الضعيفة- من تعرّض لهذا الجانب في التآليف الخاصّة بالفقه غير العالم الجليل أبو حامد الغزالي، في كتابه **إحياء علوم الدين**، والشيخ إسماعيل في كتابه **قناطر الخيرات**، إلاّ أنّ طريقتهما في التعرّض للأخلاق والسلوك نَهَجا فيها نهج الصوفية وأرباب السلوك، فكان ذلك حديثا عن الزهد والإعراض عن الدنيا والإقبال على التصوّف، لا حديثا عن الأحكام الفقهية من حلال وحرام وتشريع.

نعم لست بهذا الحديث أعيب منهجهم أو أنتقده أبدا، إنّما أريد أن أُلفِت أنظاركم الكريمة إلى الدافع الذي دفع بالشيخ الثميني إلى تناول هذا الجانب على الطريقة الفقهية التي يتناول بها الفقهاء مختلف الأحكام الشرعية، -حسب ما يبدو لي-.

لننتقل سريعا إلى إعطاء نبذة مختصرة عن الكتابين لنتصوّر مضمونهما وما عالجاه ولو باقتضاب:

كتاب تبيين أفعال العباد يقع في ثلاثة أجزاء، كلّ جزء عبارة عن كراريس، فالكتاب الأوّل لا زال مخطوطا رغم نفاسته وطرافة موضوعه:

- الجزء الأوّل 56 صحيفة من الحجم المتوسّط 23 سطر في 10.

- الثاني من 57 إلى 102 كذلك.
- الثالث من 103 إلى 154.

وقد قسّمه إلى ثلاث مواضيع: ما يكون من أفعال العباد في القلب ولا يكون من الجوارح أصلا، وما يكون من الجوارح أصلا، وما يكون منهما جميعا. وخَصَّ الجزء الأخير بكيفية التنصّل والتوبة من تلك المعاصي.

وقد وضع الدكتور محمّد صالح ناصر والشيخ بكير بن محمّد فهرسا كاملا عن محتويات هذا المخطوط النفيس في مقدّمة كتاب **القسمة وأصول الأرضين** للشيخ أحمد صاحب كتاب **تبيين أفعال العباد**.

أمّا الشيخ عبد العزيز فقد اختصر الكتاب في ستّين صحيفة من صحيفة 1017 إلى صحيفة 1077.

بدأ بقوله: «باب يصدر الفعل إمّا عن قلب كعلم وحبّ ورضى ورجاء، أو من جارحة، وإن تسبّب عن قلب كنظر وشمّ ولمس، أو منهما كتوبة وشكر...» ثمّ يتحدّث عن الأخلاق السيّئة والحسنة، مثل: الكِبر، التمنّي، الفخر، الخيلاء، حبّ الدنيا، الجزع، سخط المقدور، الحسد، الشماتة بالمصائب، القساوة، عدم الاهتمام بأمور المسلمين، الكسل، العجز، الحميّة والعصبيّة، إهانة الإسلام وتعظيم الكفر، التوكّل على الله، اليقين، الإخلاص، التقرّب إلى الله...، وهكذا في قائمة طويلة ذكرت بعضها.

وإذا تكرّمتم عليّ بالإصغاء إلى الحديث، أرجو أن أكون قد أفدتكم وكنت في حسن ظنّكم، أعرض عليكم نصّا أو نصّين من الكتابين، يمكن لكم منهما التعمّق والتصوّر الجيّد لِما في الكتابين والمقارنة الهادفة والاستنتاج.

وأختار نصّا في عزّة النفس والترفّع عن الدنايا، والنهي عن الذلّ والاستكانة لمن لا يتّقي الله ولا يراقب نفسه كما يسمّيهم «أهل الدنيا»:

قال الشيخ أبو العبّاس ص28: «مسألة أخرى. وحرام على المسلم أن يذَلّ نفسه، ومعناه أن يظهر من نفسه لصاحب الدنيا المذلّة والتواضع، ويُظهر له أنّه أفضل منه، يكون هذا بالقول أو العمل، ويكون في القلب بأن يعقد في نفسه أنّ صاحب الدنيا أفضل منه لِما معه من متاع الدنيا، فإذا فعل

هذا عصا وأثِم -إلى أن قال-: ومن هذا الباب طلبُ كثرة الحوائج إلى الناس وكثرة الإلحاح إليهم، وطلب الحقوق مثل الزكاة والوصايا».

ويقول الشيخ عبد العزيز في نفس الموضوع ص1024: «حرِّم على المسلم إذلال نفسه لدنيوي بقول أو فعل أو اعتقاد، وندب له التعزّز عنه وإظهار الغنى عنه وإن كان له مال الدنيا كلُّه. ومن ثَمَّ قيل: من أظهر حاجته لدنيوي كمن اشتكى بربّه، ومظهِرها لأخيه المسلم كرافعها لخالقه. وحرِّم عليه كذلك تصغير نفسه واحتقارها، كما حرّم عليه أن يدنّس نفسه بفعل ينقصه وإن بصحبة من تكرم له صحبته».

تأمّلوا هذا الجانب الهام من خلق المسلم، خلُق العزّة والكرامة، والترفّع عن الدنايا وأصحاب الفسوق والعصيان ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله.

وأنهي حديثي بنصّ آخر في موضع طريف وهامٍّ جدا في حياة المسلمين، موضوع الاهتمام بمصالح المجتمع وجلب المنافع لهم، وهو ما يسمى في لغة أهل العصر: التحلّي بالحس الاجتماعي ونبذ النظرة الضيّقة والأنانية وحب الذات:

قال الشيخ أبو العباس ص32: «مسألة في الاهتمام بالمسلمين وأمورهم. جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أصبح و لم يهمُّه أمر المسلمين فليس منهم». ومعنى هذا الاهتمام، إذا لم يهتم بما يصيبونه في الآخرة من الثواب وكذلك الاهتمام بهم في دنياهم وأمورهم كلّها مما يصيبونه فيها من المنافع وما يصيبهم فيها من المضار فذلك فرض عليه. ومن الاهتمام بالمسلمين النصيحة لهم في أمر دينهم ودنياهم، وسواء في ذلك الحاضر والغائب ولكن من حضر فليباشره، ومن غاب فلينصحه بالكتاب والوصية، ومن حالت الموانع دونه فليهتمّ به وليدع له، والدعاء من الأخ المسلم لأخيه المسلم في الله بمكان، ولا سيما إذا كان غائبا».

وقال الشيخ عبد العزيز ص1023: «يستوجب البراءة ممن لم يهتمّ بأمور المسلمين، ولو دنيوية، وعليه النصيحة لهم، وإن لغائبهم، بكتاب وإعلام، وبدعاء واهتمام وإن لم يتيسر -إلى أن قال- وحرِّم الاهتمام بأمور الكفر، وإن لم يكن لاستجلاب نفع واستدفاع لضرّ ما لم يقصد تقويمهم على الباطل.»

وكأنّي بالشيخ عبد العزيز يومئ بجعل هذا الموضوع موضوع الأخلاق والمحافظة على السلوك الإسلامي النبيل، يومئ إلى أنّ التقيّد بالأحكام الشرعية والبحث عن الحلال والحرام دون الإقبال على نقاوة القلب وإخلاص العمل ومراقبة النفس لا ينفع صاحبه ولا ينجّيه من الحساب والعقاب يوم القيامة. فشاء أن يجعل هذا الموضوع خاتمة وتتويجا لما بسطه في غضون أحد وعشرين موضوعا أو كتابا.

وإذا فكّرنا بعيدا يمكن أن نقول إنّ ضياء الدين يريد أن يرسل إشارة إلى كثير من فقهاء زمانه والذين من قبله أو من بعده وقد حذقوا من علم الفقه والشريعة ما حذقوا وتفنّنوا في الاستنباط والاجتهاد ما تفنّنوا، ولكن أدّى بهم ذلك إلى المماراة والخصام واتّهام بعضهم بعضا وسوء الظنّ وتبادل الشتم. فهؤلاء ليسوا من الفقهاء في شيء فهم كما سمّاهم الرسول ﷺ من علماء السوء.

والخلاصة إنّ الكتاب فريد من نوعه في هذا الموضوع ويعالج قضايا هامّة نفسانية واجتماعية ومسلكية تعاملية، وأهمّ من الكتاب العمل بما يدعو إليه، اللهمّ حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه لنا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.



بسم الله الرحمن الرّحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

المنطق وعلم الكلام عند ضياء الدين عبد العزيز الثميني

(ت. 1223هـ/ 1808م)

بقلم د/ عليوان سعيد

إذا كان من تعاريف المنطق أنّه: «قانون تعصم مراعاته بتوفيق الله تعالى الذهن من الخطأ في فكره كما يعصم النحو اللسان من اللحن في قوله»[1]. وكان من فوائد تعلّمه: «إيضاح الحقّ بالقياس الصحيح المؤيّد أي المقوّى بالبرهان الصريح... »[2].

وكان من تعاريف علم الكلام أنّه:

«علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنّة»[3] وأنّه «علم بأمور يقتدر معه على إثبات العقائد الدينيّة بإيراد الحجج ودفع الشبه عنها... »[4] فهل من علاقة بين المنطق وعلم الكلام؟ وهل هذه العلاقة إن وجدت إيجابيّة أم سلبيّة؟ وفيمَ تتمثّل؟

---

(1) محمّد بن يوسف السنوسي، **شرح مختصر في علم المنطق**. مخ المكتبة الوطنيّة، الجزائر. رقم 1382، ورقة 1/ أ.

(2) عبد العزيز الثميني، **تعاظم الموجين في شرح مرج البحرين**، لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني السدراتي (نسخة مصوّرة عن أصل بخطّ المؤلّف، ملك للسيّد قلاّع الضروس عمر. بني يزقن. غرداية) ورقة 5 / أ.ب.

(3) ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدّمة**. دط. دار العودة. بيروت، د.ت، ص363.

(4) عبد العزيز الثميني، **كتاب معالم الدين**. دط، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1986، ج1، ص17، 18.

هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال موضوع بحثنا بادئين بالحديث عن دخـــول المنطـــق اليوناني إلى العالم الإسلامي.

دخول المنطق اليوناني إلى العالم الإسلامي

لقد دخل المنطق اليوناني إلى العالم الإسلامي بطرق عدّة، هي:

1. الترجمة التي اهتمّ بها العبّاسيون كثيرا، وكان المنطق من أوّل ما ترجم إلى اللغة العربيّة.
2. الفتوحات الإسلاميّة التي جعلت المسلمين يحتكّون بغيرهم، فعرفوا ما لديهم مـــن علـــوم ومنها المنطق.
3. طبيعة الإسلام الذي يدعو إلى الحرّية الفكريّة ممّا جعل الأمم المفتوحة تجهر بفكرها.
4. احتكاك المسلمين بآباء الكنيسة العرب[5].
5. حبّ المسلمين لأن يعرفوا ما عند الآخرين من علوم.
6. الترف الفكري والدعة اللذان وصل إليهما المسلمون بعد اتّساع دولتهم[6]

وكان المنطق أوّل ما ترجم إلى اللغة العربيّة، ويذكر المؤرّخون أنّ أقدم تراجم الكتب اليونانيّـة ترجمة، كتب أرسطو المنطقيّة الثلاثة في صورة المنطق (قاطيفورياس، بارى أرمنياس، أنالوطيقـا الأولى) ثمّ اللغوس لفرقريوس الصوري[7]، والذي قام بهذه الترجمة عبد الله بن المقفّع[8] (ت. 158هـــ/ 759م) على أرجح الأقوال، وذلك بأمر الخليفة العبّاسي أبي جعفر المنصور[9] (ت. 775م). ثمّ ترجم أبو نـوح

(5) عليّ سامي النشار، **مناهج البحث عند مفكّري الإسلام**، ط4، دار المعارف، مصر، 1978، ص19، 20.

(6) محمّد عبد الستّار أحمد نصـار، **المدرسة السلفيّة وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام**، ط1، دار الأنصـار، القاهرة، 1979، ج1، ص118.

(7) عليّ سامي النشار، المرجع السابق، ص20.

(8) ابن النديم، **الفهرست**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص337، عبد الحليم تمـور، **التفكير الفلسفي في الإسلام**، دط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص280.

(9) محمّد عبد الستّار أحمد، المرجع السابق، ص128. ويذكر عليّ سامي النشار أنّ ابن المقفّع قام بتلخيص تلك الكتب لا بترجمتها. (عليّ سامي النشار، المرجع السابق، ص22).

ثمّ سلّم أصاحب بيت الحكمة كتب أرسطو المنطقيّة إلى آخر الأشكال الحمليّة ثمّ أتى حنين بن إسحاق (264هـ/877م) ومدرسته فنقلوا الأورغاتون إلى العربيّة، ثمّ أتى يحي بن عدي (ت. 264هـ) فترجم المنطق واختصر بعض كتبه، وقد ساهم في هذه الترجمة كذلك إسحاق بن حنين النصراني الذي أسلم على يد المكتفى، وأبو بشر بن يونس (ت 328هـ/ 940م) وغيرهما[10].

وبالإضافة إلى ترجمة كتب أرسطو المنطقيّة، فقد ترجمت كتب شرّاحه، مثل الإسكندر الأفروديسي (ت في بداية ق3م) الذي هاجم الرواقية ممّا جعل العرب يطّلعون على بعض خصائص المنطق الرواقي.

وهكذا فقد وصل المنطق الأرسطي إلى العالم الإسلامي من مصادر متعدّدة، ممتزجا بأبحاث أخرى غير أرسطيّة أضافها الشرّاح اليونانيون من المشّائين من بعده بالإضافة إلى عناصر هامّة من المنطق الرواقي[11].

وهذا يدعونا إلى التعرّض إلى مواقف المسلمين منه.

مواقف المسلمين من المنطق الأرسطي

لقد وقف المسلمون من المنطق الأرسطي مواقف مختلفة، هي:

1) قسم منهم قبِله كوحدة فكريّة كاملة، واعتبروه قانون العقل الذي لا يتزعزع ومن بينهم الكندي (ت 252هـ/ 864م) والفارابي (ت 339هـ) وابن سينا (ت 428هـ/1037م) ، وذلك لأنّهم قبلوا الميتافيزيقا اليونانيّة. ومنطق أرسطو هو منطق ميتافيزيقي إذ هو آلة لهذه الميتافيزيقا وجزء منها في آن واحد كما سنذكر.

2) وقسم آخر من الأصوليين والمتكلّمين الذين اعتبروا الفلاسفة جسما غريبا في صلب الأمّة الإسلاميّة، رفضوه رفضا مطلقا، وحاولوا إقامة منطق جديد هو المنطق الإسلامي، أو منطق الأصوليين، ومن بين أصحاب هذا الاتّجاه ابن تيمية (ت 728هـ/1328م) وقد اعتنق هذا الرأي

---

(10) المرجع نفسه، ص22-23.

(11) محمّد عبد الستّار أحمد، المرجع السابق، ص135.

كذلك قسم من الفقهاء وعلماء الحديث، ومنهم ابن الصلاح (ت 643هـ/1045م)، والسيوطي (ت 911هـ)، وذلك بحجّة فساده وعدم احتياجها إليه، كما رفضه المتصوّفة الذين يرفضون أيّ منهج يستند على العقل وذلك باستثناء السهروردي (ت 587هـ/1191م) الذي قام بمحاولة لاختصار منطق أرسطو، ومع ذلك فقد حاول إخضاعه للتصوّف.

3) وقسم آخر من الأصوليين والمتكلّمين أخذوا بالمنطق اليوناني مع محاولة تنقيته من ميتافيزيقا اليونان، وملئه بمادّة جديدة[12] كما هو الحال عند الغزالي (ت 505هـ/1111م) وهذا يدعونا إلى التعرّف إلى أسباب الرفض ثمّ إلى أسباب القبول.

أسباب رفض المنطق الأرسطي

يمكننا أن نلخّص أسباب رفض المتكلّمين الأوائل للمنطق الأرسطي في سبب جوهري، وآخر متفرّع عنه.

أمّا السبب الجوهري فهو: «أنّ المتكلّمين لم يقبلوا ميتافيزيقا أرسطو –وهي في جوهرها مخالفة لميتفيزيقيا القرآن– فكان من المحتّم أن لا يقبلوا منهاج البحث الذي استندت عليه هذه الميتافيزيقا، وبخاصّة أنّ حقائق منطق أرسطو متّصلة بحقائق ميتافيزيقا، ومرتبطة بها، ويقينيّة منطق أرسطو مرتبطة بيقينيّة ميتافيزيقاه أيضا»[13].

وأمّا السبب المتفرّع عن هذا، فهو الارتباط الوثيق بين طبيعة الموضوع المعالج وطبيعة المنهج المستخدم، فالموضوع المعالج –حسب الرافضين– يتأثّر حتما بالمنهج المعالج. وقد تتغيّر حقيقة الموضوع عندما يعالج بمنهج غريب عن طبيعته[14]. وعلى هذا الأساس فإنّ معالجة موضوعات العقيدة باستخدام منهج الفلسفة الذي هو المنطق غلط جوهري.

ولكي نفهم هذين السببين، تحتّم علينا بحث علاقة المنطق بالميتافيزيقا.

---

[12] عليّ سامي النشار، المرجع السابق، ص27، 28.

[13] عليّ سامي النشار، المرجع السابق، ص80.

[14] مهدي فضل الله، **آراء نقديّة في مشكلات الدين والفلسفة والمنطق**، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1981، ص200.

علاقة المنطق بالميتافيزيقا

المنطق الأرسطي منطق ميتافيزيقي، وميتافيزيقاه تتناقض مع ميتافيزيقا الإسلام، ولـــذا نجـد أرسطو (384ق م – 321ق م) لم ينعت منطقه بأنّه آلة، بل كان ينظر إليه على أنّـه علـم نظـري، والشرّاح من بعده هم الذين نعتوه بالآلية. وقد استعمل لفظ "آلي" أمنيوس وسنبلقيوس في القـرن 5م، ثمّ ردّ هذا القسم الآلي إلى القسم العملي في مقابل النظري، وهو ما تعنيه كلمة "أورغانون"[15]. وقـد تأثّر كثير من مناطقة المسلمين بهذا النظر لطبيعة المنطق، وعرّفوه بأنّه «آلة قانونيّة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر»[16]، بل وصل بهم الأمر إلى أن اعتبروه غير ميتافيزيقي مقابلا للميتافيزيقا، فـهو علم عملي آلي، كما أنّ الحكمة علم نظري غير آلي[17].

ونحن عندما ننظر إلى المنطق نظرة فاحصة نجد أنّه ميتافيزيقي فعلا. ونتأكّد من هـذا عندما نبحث مبادئه وأقسامه حيث نكتشف ميتافيزيقاه.

فالقوانين التي يقوم عليها مثل قانون الذاتيّة، وعدم التناقض والثالث المرفوع هي مبادئ مجـرّدة قبلية على كلّ تفكير، إذ هي قوانين وجوديّة تخضع لها سائر الموجودات، وكذلك التعريف، فهو مبنيّ على أصل ميتافيزيقي؛ لأنّ الغاية منه التوصّل إلى الكنه أو الحقيقة الكاملة.

ثمّ إنّه يقوم على فكرة المفهوم التي تنتهي إلى تجريد كامل.

وكذا البرهان الذي هو بحث في الحقّ المطلق[18].

ومن ثمّ فإنّ هناك علاقة وتأثيرا متبادلا بين المنطق والميتافيزيقا، هذا التأثير هو الـذي نـوّع الفلسفات ونوّع المنطق[19].

---

(15) عبد الرحمن بدوي، **المنطق الصوري والرياضي**، ط5، وكالة المطبوعات، الكويت، 1981، ص18.

(16) أبو الحسن عليّ بن محمّد بن عليّ الجرجاني، **التعريفات**، دط، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 1971، ص121.

(17) المصدر نفسه، ص121.

(18) عليّ سامي النشار، **المنطق الصوري منذ أرسطو حتّى عصورنا الحاضرة**، ط5، دار المعارف، مصر، 1971، ص51.

(19) محمّد ثابت الفندي، **أصول المنطق الرياضي**، دط، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1976، ص65.

وقد تنبّه الفقهاء والمتكلّمون إلى هذا «وأنكروا أن تكون غاية أيّ منطق عقلي التوصّل إلى الماهية الكاملة، لأنّ ذلك يؤدّي إلى محاولة تحديد الذات الإلهية وغيرها من الموجودات التي لا يمكن التوصّل إلى كنهها لأنّ العلم بها توقيفي، كما أنكروا مادّة القضايا والقياس البرهاني وهاجموا العليّة الأرسطيّة»[20].

وكان أهمّ المفكّرين المسلمين الذين تنبّهوا إلى هذا الغزالي، الذي غيّر رأيه في المنطق وأصبح يشدّد القيود كثيرًا على تعلّمه.

بالإضافة إلى أنّ البرهان الفلسفي المبنيّ على المنطق لا يوصل إلى اليقين في الإلهيات، واتّصاله بإلهيات أرسطو واضح[21].

ثمّ إنّ المناطقة الفلاسفة «يجمعون للبرهان شروطا يعلم أنّها تورث اليقين لا محالة، لكنّهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينيّة ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل»[22]، ثمّ «ربّما ينظر في المنطق من يستحسنه ويراه واضحا فيظنّ أنّ ما ينقل عنهم من الكفريّات مؤيّدة بمثل تلك البراهين. فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهيّة»[23].

وقد عمل الغزالي ما في وسعه ليغيّر محتوى المنطق بين ميتافيزيقاه الوثنيّة ويرجع إلى محمّدﷺ بدل أرسطو[24]. وقد غيّر محتوى المنطق، وصبّ فيه مادّة إسلاميّة وأثّر في الفكر الإسلامي.

وهذا يدعونا إلى التعرّض إلى أسباب القبول.

---

(20) عليّ سامي النشار، **المنطق الصوري من أرسطو..**، ص67.

(21) عليّ سامي النشار، **مناهج البحث عند مفكّري الإسلام**، ص137.

(22) الغزالي أبو حامد، **المنقذ من الضلال**، مع أبحاث في التصوّف لعبد الحليم محمود، دط، مطبعة حسان، القاهرة، د.ت، ص116.

(23) المصدر نفسه، ص116.

(24) الغزالي، **القسطاس المستقيم**، تحقيق فيكتور شلحت، ط2، دار المشرق، بيروت، 1983، ص33.

أسباب قبول المنطق، أو موقف المؤيّدين للأخذ به

لقد ذكرنا آنفا ما فعله الغزالي للمنطق بتغيير محتواه وصبّ مادّة إسلاميّة فيه وتأثيره في الفكر الإسلامي.

والواقع أنّ الغزالي يعدّ أكبر فيلسوف أو عالم كلام أثّر فيمن أتى بعده من علماء الكلام والفقهاء والأصوليّين وحتّى اللغويّين في الأخذ بالمنطق.

لقد لفت الغزالي أنظار المسلمين إلى أهمّيّة المنطق وإلى أهمّيّة دراسته. وتتمثّل فائدته في التخلّص من حاكم الحسّ والهوى والتمسّك بحاكم العقل والتوصّل إلى درجات السعادة. وقد ألّف كثيرا من الكتب في المنطق، منها: **معيار العلم**، و**محكّ النظر** و**القسطاس المستقيم** و**مقدّمة المستصفى** وقسم كبير من **مقاصد الفلاسفة**. وقد بيّن أهمّيّة المنطق في هذا الأخير بقوله: «وأمّا المنطقيّات فأكثرها على منهج الصواب، والخطأ نادر فيها، وإنّما يخالفون أهل الحقّ فيها بالاصطلاحات والإيرادات دون المعاني والمقاصد، إذ غرضها تهذيب طرق الاستدلالات وذلك ممّا يشترك فيه النظّار»[25].

وهكذا نجد الغزالي يتخلّص من المنطق الإسلامي الذي اتّبعه الفقهاء والأصوليّون من قبله. ومن هنا فقد تبنّى المفهوم الأرسطي للحدّ الذي يعني ماهية الشيء أو ذاتيّته بدلا من التعريف الأصولي للحدّ الذي يعني تفسير الشيء لتمييزه عن غيره دون البحث عن الحقيقة أو الماهية، لأنّ الماهية يصعب التوصّل إلى معرفتها[26].

ويبدأ عمليّة المزج بين علوم الإسلام وبين المنطق الأرسطي، ويظهر هذا المزج واضحًا في كتابه **المستصفى** الذي يعدّ أوّل محاولة لإقامة أصول الفقه على أسس المنطق الأرسطي، وقد دعاه إلى هذا المزج اعتقاده بيقينيّة المنطق، وبأنّه قانون عامّ يشترك فيه النظّار[27]. لكنّ الغزالي يعلن هذا محاولة منه في جعل المنطق اليوناني وعاء يصبّ فيه مادّة جديدة تختلف عن المادّة اليونانيّة التي كانت منصبّة فيه، ذلك أنّه كان يعتقد أنّ القوالب المنطقيّة صحيحة، ولكن المادّة المنصبّة فيها غير صحيح أغلبها،

---

(25) الغزالي، **مقاصد الفلاسفة**، تحقيق سليمان دنيا، ط2، دار المعارف، مصر، د.ت، ص32.

(26) مهدي فضل الله، المرجع السابق، ص204.

(27) عليّ سامي النشار، **مناهج البحث عند مفكّري الإسلام**، ص133.

والدليل على هذا هو الأمثلة الفقهيّة التي كان يكثر من إيرادها في قوالب منطقيّة، ومنها ما أورده في قياس الخلف بعد أن بيّن صورته إذ يقول: كلّ ما هو فرض فلا يؤدّى على الراحلة، والوتر فرض، فإذن لا يؤدّى على الراحلة[28].

ومن هنا نستنتج :

بأنّ الغزالي لم يكن متعصّبا للمنطق اليوناني وهو على حالته، وإنّما أراد أن يجعله قوالب يونانيّة ذات محتوى إسلامي، وذلك بعد أن خلّصه من الميتافيزيقا ا ليونانيّة، ويؤكّد الغزالي أهميّة المنطق في العلوم النظريّة سواء كانت عقليّة أو فقهيّة، أي أنّ العقليّات والفقهيّات تتّفقان في الصورة وتختلفان في المادّة، ولذا فإنّ فائدته عامّة لجميع هذه العلوم، ومن هنا فقد تحمّس له ورأى أنّ جميع المناهج الأخرى لا توصل إلى اليقين، «فكلّ نظر لا يزن بهذا الميزان، ولا يعاير بهذا المعيار، فاعلم أنّه فاسد العيار، غير مأمول الغوائل والأغوار»[29].

وهذا ما جعل كثيرا من الفقهاء والمفكّرين يثورون عليه وينكرون انحرافه عن العادات في تفهيم العقليّات القطعيّة بالأمثلة الفقهية الظنيّة، ولكن الغزالي يسخر منهم ويتّهمهم بالجهل بصناعة التمثيل، وأنّ صناعة التمثيل لم توضع إلاّ لتفهم الأمر الخفيّ بما هو الأعرف عند المخاطب المسترشد[30]. «ليقيس مجهوله إلى ما هو معلوم عنده فيستقرّ المجهول في نفسه، فإذا كان الخطاب مع نجّار لا يحسن إلاّ النجر وكيفيّة استعمال آلاته وجب على مرشده أن لا يضرب له المثل إلاّ من صناعة النجارة ليكون ذلك أسبق إلى فهمه وأقرب إلى مناسبة عقله»[31]. وهذه القضيّة الأخيرة في نظرنا لها أهميّتها الكبرى في الدفاع عن العقيدة الإسلاميّة، ذلك أنّنا نستخدم منهج الفلاسفة لدرء شبهاتهم، ومنهج اليهود والنصارى في درء شبهاتهم وفهم ما عندهم.

---

(28) الغزالي، **معيار العلم**، ط3، دار الأندلس، بيروت، 1981، ص114.

(29) المصدر نفسه، ص27.

(30) عليّ سامي النشار، **مناهج البحث عند مفكّري الإسلام**، ص134.

(31) الغزالي، **معيار العلم**، ص27.

وإذا كان الغزالي قد غيّر محتوى المنطق (مادّته) فإنّه رأى أنّه كثيرا من مصطلحاته لا تتناسب مع اللغة العربية ومع الحضارة الإسلاميّة، فوضع له كثيرا من الاصطلاحات الجديدة، نلاحظها مبثوثة في مختلف كتبه المنطقيّة، ولقد استطاع أن يطبّق قواعد المنطق بعمق على نواحي تفكيره المختلفة من علم كلام وأصول وفقه. كما واءم في أحيان كثيرة بين اصطلاحات المنطق وغيرها من اصطلاحات العلوم الإسلاميّة[32]. فالمنطق في نظره ميزان صحيح يجب استعماله في مختلف العلوم، ولكي يقضي المسلمون على ما بينهم من اختلافات لابدّ أن يستخدموا الموازين الخمسة المسمّاة بالقسطاس المستقيم، لأنّها مدارك اليقين قطعا. وهي في نظره مستمدّة من القرآن الكريم ومن السنّة النبويّة، وهي منهج الأنبياء عليهم السلام «فاعلم أنّ موازين القرآن في الأصل ثلاثة: ميزان التعادل وميزان التلازم وميزان التعاقد، لكن ميزان التعادل ينقسم إلى ثلاثة أقسام، الأكبر والأوسط والأصغر فيصير المجموع خمسة[33]، هذه الموازين أنزلها الله في كتابه وعلّم الوزن بها أنبياءه»[34].

هذه الموازين الخمسة التي يسمّها القسطاس المستقيم أو الموازين هي القياس الأرسطي بعينه، إذ نجد الأنواع الثلاثة من ميزان التعادل هي على الترتيب متناسبة مع أشكال القياس الاقتراني الثلاثة، وميزان التلازم والتعاقد يناسبان القياس الشرطي المتّصل والمنفصل، ولكن أهمل كلمة (قياس) لأنّها لم تعد ذات مدلول علمي لكثرة استعمال المغالطات فيها من طرف أصحاب الجدل السفسطائي، فأراد أن يعيد الاعتبار للقياس من جديد تحت اسم آخر هو الميزان الذي يعني القياس العلمي أو البرهان المفيد للمعرفة الصحيحة، وبعبارة أخرى فإنّ الغزالي أعاد صياغة المنطق اليوناني صياغة جديدة متناسبة مع رفع الحضارة الإسلاميّة شكلا ومضمونا، أي أسلمه وجعله من العلوم الإسلاميّة التي لا غنى عنها لأيّ باحث. ولقد توصّل الغزالي، وهو ما جعله يؤثّر تأثيرًا كبيرًا فيمن أتى بعده أن يستخرج أشكال القياس الاقتراني الحملي الثلاثة الأولى من القرآن الكريم، ويعتبر من لا يحيط به فلا ثقة بعلومه أصلا[35].

---

(32) عليّ سامي النشار، **مناهج البحث عند مفكّري الإسلام**، ص136، محمّد عبد الستار أحمد نصار، المرجع السابق، ص188.

(33) الغزالي، **القسطاس المستقيم**، ص46.

(34) الغزالي، **القسطاس المستقيم**، ص43.

(35) الغزالي، **المستصفى**، ط1، المكتبة التجاريّة الكبرى، مصر، 1937، ص7.

وهاهي الأشكال الثلاثة كما بيّنها الغزالي من القرآن الكريم:

الشكل الأوّل: يقول عنه الغزالي: «واعلم أنّ الميزان الأكبر هو ميزان الخليل عليه السلام الذي استعمله مع نمرود، فمنه تعلّمنا هذا الميزان، لكن بواسطة القرآن، وذلك أنّ نمرود ادّعى الإلهية، وكان الإله بالاتّفاق عبارة عن القادر على كلّ شيء...فقال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَاتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَاتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الذِي كَفَرَ﴾[36]. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[37].

وتأويل هذا:

«كلّ من يقدر على إطلاع الشمس فهو الإله...وإلهي هو القادر على الإطلاع...فينتج أنّ إلهي هو الإله دونك يا نمرود»[38].

الشكل الثاني: يقول عنه الغزالي: «الميزان الأوسط للخليل أيضا عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[39]، وكمال صورة هذا الميزان:

«أنّ القمر آفل، والإله ليس بآفل، فالقمر ليس بإله»[40].

الشكل الثالث: يقول عنه الغزالي: «...الميزان الأصغر تعلّمناه من الله تعالى حيث علّمه محمّدا عليه السلام في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنَ اَنزَلَ الْكِتَابَ الذِي جَآءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾[41].

---

(36) سورة البقرة، الآية: 258.

(37) سورة الأنعام، الآية: 83.

(38) الغزالي، **القسطاس المستقيم**، ص55.

(39) سورة الأنعام، الآية: 76.

(40) الغزالي، **القسطاس المستقيم**، ص55.

(41) سورة الأنعام، الآية: 91.

ووجه الوزن بهذا أن نقول: «قولهم بنفي إنزال الوحي قول باطل الازدواج المنتج عن أصلين، أحدهما أنّ موسى بشر، والثاني أنّ موسى منزل عليه الكتاب، فيلزم منه بالضرورة قضيّة خاصّة، وهو: أنّ بعض البشر ينزل عليه الكتاب وتبطل به الدعوة العامّة بأنّه لا ينزل كتاب على بشر أصلا»[42].

ونستنتج ممّا سبق أنه لمّا كان القياس هو المقصد الأعظم من فنّ المنطق وكان أهمّ ما في القياس أشكاله الثلاثة، وكانت هذه الأشكال الثلاثة قد وردت كلّها في القرآن الكريم، فإنّ تعلّم المنطق يصبح مطلبًا شرعيًّا، إذ بدونه نجهل بعض ما ورد في القرآن الكريم ولاسيما فيما يتعلّق بالدفاع عن العقيدة الإسلاميّة، وقد رأينا أنّ الأشكال الثلاثة السابقة التي وردت في القرآن الكريم وفقا لتصوّر الغزالي إنّما كانت كلّها في معرض الدفاع عن العقيدة الإسلاميّة وإبطال دعاوى الخصوم.

وهذا يدلّ على أنّ الذين أفتوا بتحريمه كانوا بعيدين عن فهم روح القرآن، وهو ما جعل الغزالي يعتبره فرض كفاية[43]، ويعدّ جاهله غير موثوق بعلومه، وهو ما جعل الثميني يتبنّى موقف الغزالي كما سنذكر، ويواصل المسيرة.

وإذا كان الغزالي قد بيّن الأشكال الثلاثة من القرآن الكريم فإنّ علماء آخرين بيّنوا أنواعا أخرى من الأقيسة في القرآن الكريم، نكتفي بالإشارة إلى اثنين منها، هما:

– قياس الخلف الذي هو: إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وذلك مثلا في استدلال القرآن الكريم على إثبات الوحدانيّة لله ﷻ بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[44]، ففي هذه الآية الكريمة قد أثبت المطلوب بإبطال نقيضه[45].

– الأقيسة الإضماريّة، وهي الأقيسة التي تحذف إحدى –أو بعض– مقدّماتها، ومنها قوله تعالى في الردّ على ادّعاء النصارى أنّ عيسى ابن الله لأنّه خلق من غير أب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ

---

(42) الغزالي، **القسطاس المستقيم**، ص59.

(43) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ط1، دار الفكر، بيروت، 1975، ج1، ص22، 23.

(44) سورة الأنبياء، الآية: 22.

(45) عليّ عبد الفتّاح المغربي، **الفرق الكلاميّة الإسلاميّة مدخل ودراسة**، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1986م، ص54.

ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ، الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[46]، ففي هـذا دليل قويّ يبطل ما يدّعون، ذكرت فيه مقدّمة واحدة هي إثبات مماثلة آدم لعيسى، وطوي ما عداها وكأنّ سياق الدليل هكذا: إنّ آدم ليس ابنا باعترافكم، فعيسى ليس ابن أيضا[47].

وإذا كان الشكلان الثاني والثالث يدحضان ادّعاءات اليهود وكان القياس الإضماري الـذي أوردناه يدحض ادّعاءات النصارى، وكان اليهود والنصارى أشدّ الناس عداوة للقرآن الكريم وكـانوا متواجدين متصارعين مع المسلمين على مرّ العصور ولا يزالون، أدركنا السبب الذي جعـل علمـاء الكلام يستخدمون المنطق للردّ على افتراءاتهم وادّعاءاتهم على مرّ العصور، ومن هؤلاء العلماء العلاّمة الثميني، ويجب أن نشير هنا رفعا للالتباس بأنّه إذا كان القرآن الكريم قد استخدم الأقيسة المنطقيّـة في أدلّته، فإنّه لم يكن مقيّدا بصياغة منطقيّة أو أقيسة أو أشكال معيّنة، بل كان أسلوبه يعلو قواعد المنطق ويفوقها إحكاما وصدقا، وهو كتاب دين، وليس كتاب منطق[48]، ولكنّه احتوى على أساس المنطـق كما احتوى على أساس العلم، وهو ما يسمّى اليوم بالإعجاز العلمي ليظلّ مبهرا للنفـوس، معجـزًا للعقول على مرّ العصور.

وبهذا نتوصّل إلى إبطال السبب الجوهري في رفض المنطق، وهو ارتباطه بالميتافيزيقـا، ومنـه ننتقل إلى إبطال السبب الثاني المتفرّع عنه، وهو:

الارتباط بين طبيعة الموضوع المعالج وطبيعة المنهج المستخدم

فنجد علماء الكلام المستخدمين للمنطق ومنهم العلاّمة الثميني يجيبون على الإشكال بأنّـهم يستخدمون المنهج القرآني في علم الكلام لا منهج الفلسفة، والمنهج القرآني يعتمد على العقل، حيـث يأمر الإنسان بالبحث في كلّ ما يوصل إلى معرفة الله وإثبات خلقه للحوادث وفنائها وغـير ذلـك. والقرآن الكريم ذاته يخاطب العقل ويأمر باستخدامه ويعيب على الذين لا يستخدمونه، والمنطق ما هو

(46) سورة آل عمران، الآيتان: 59، 60.

(47) ومن أراد معرفة المزيد من الأقيسة المنطقيّة التي وردت في القرآن الكريم فليرجع إلى عليّ عبد الفتّاح المغربي، المرجـع السابق، ص53، 54.

(48) عليّ عبد الفتّاح المغربي، المرجع السابق، ص55.

إلاّ قوانين تنشّط الذهن الإنساني وتمنع تحجّره ويضبط به الإنسان منهجه بحيث لا يقع في تناقضات أو يخرج عن الموضوع المعالج إلى غير ذلك من فوائده. ولقد توصّل علماء الكلام إلى هذا، بل توصّلوا إلى إضافة نظريّة في المعرفة متكاملة بنوا عليها علم الكلام كما هو حال كتاب **معالم الدين** للثميني، وذلك بعد أن نظّفوا المنطق من المحتوى الميتافيزيقي اليوناني ليصير كما يقول الغزالي: «وأمّا المنطقيّات فلا يتعلّق شيء منها بالدين نفيًا أو إثباتا، بل هو النظر في طرق الأدلّة والمقاييس وشروط مقدّمات البرهان وكيفيّة تركيبها»[49].

ولكي تتّضح القضيّة أكثر وتزول العلاقة بين منطق اليونان ووثنياتهم اتّجه بعض علماء الكلام وعلى رأسهم شيخانا السنوسي التلمساني (ت895هـ) والثميني (ت.1808م) إلى التمييز بين معاني قواعد المنطق واصطلاحاته وضوابطه، فمعاني المنطق فطريّة وليست منهجا خاصّا بالفلسفة، فكلّ عاقل يجدها مركوزة في ذهنه دون أن يتعلّمها، وعندما نعالج مواضيع علم الكلام تكون إذن معاني تلك القواعد مساعدة لنا في البحث، وهنا لا نتأثّر بمنهج الفلسفة ولا بوثنيّة اليونان، ولا نكون قد أدخلنا جسما غريبا إلى الإسلام.

أمّا اصطلاحات المنطق وضوابطه، فهذه يستطيع كلّ عاقل الاستغناء عنها، ولكنّها مع ذلك تفيدنا.

لكنّ الذي يهمّنا لأنّه يفيدنا، هو ما يكتسب به التصوّرات والتصديقات[50]، وعلى هذا الأساس فإنّ استخدام هذا القسم من المنطق هو استخدام للمنهج العقلي، والشريعة لا تقوم إلاّ على العقل.

وعلى هذا الأساس، فقد أصبح المنطق خادما لعلم الكلام، بل أصبح منطق أغلب المناطقة إن لم نقل كلّهم يعبّر عن ميتافيزيقا الإسلام، فنجده مملوءا بالحديث عن المعجزات، وبراهين وجود الله ﷻ، وما إلى ذلك، وهذه القضايا من أبواب علم الكلام الأساسية، ووُرُودُها في كتب المنطق ليس عبثًا، ومن هؤلاء المناطقة على سبيل المثال محمّد بن يوسف السنوسي التلمساني الذي نجد شرحه لمختصره في المنطق يحتوي على كثير من قضايا التوحيد في قضايا منطقيّة.

(49) الغزالي، **المنقذ من الضلال**، ص116.

(50) محمّد بن يوسف السنوسي، **شرح مختصر في علم المنطق**، ورقة 227 / أ.

وكذلك الشيخ الثميني في كتابه **تعاظم الموجين** بل نجد 56 ورقة الأولى منه وهي ما يزيد على 100 صفحة من الورق العادي عبارة عن مقدّمات كلاميّة.

وهكذا فقد أصبح الإنسان عندما يقرأ كتابا في المنطق يحسّ بأنّه يقرأ كتابا في العقيدة، وعندما يقرأ كتابا في العقيدة يحسّ بأنّه يقرأ كتابا في المنطق، بل يعسر عليه فهم كتب العقيدة إذا لم يكن متمكّنا من علم المنطق، لأنّه أصبح بنْيَتَها. ومن الأمثلة على هذا كتاب **المقدّمات** للسنوسي وشرحه عليه. و**كتاب معالم الدين** للثميني، فمع أنّ هذين الكتابين في العقيدة إلاّ أنّ مؤلّفيهما جعلا جزءا أساسيا فيهما منطقيا استخدماه في العقائد وبنيا عليه براهينهما، فمزجا فيه بين جزء من المنطق وبين العقائد، كحديثهما عن الحكم وأنواعه. وكان الغزالي قد أورد هذا قبلا في كتابه **المحكّ** ممّا يدلّ على صحّة تصوّرنا، بل نجد قدوة هؤلاء العلماء في هذا هو الغزالي الذي أفضنا في الحديث عنه قبلا. ونشير هنا إلى قضيّة مهمّة تتمثّل في العمل العظيم الذي قام به في هذا المجال، وهو كتابه **تهافت الفلاسفة** ومع أنّ الكتاب أشهر من نار على علم إلاّ أنّ الذي يهمّنا هنا هو المنهجيّة التي اتّبعها الغزالي، وتتمثّل في المقدّمتين الكبيرتين اللتين كتبهما تقديما لهذا الكتاب.

المقدّمة الأولى حدّد فيها منهج الفلاسفة بدقّة، وهو المنهج ذاته الذي اتّبعه في نقدهم ممّا يجعل **تهافته** كتابا كلاميا من الطراز الأوّل. هذه المقدّمة هي «معيار العلم في فنّ المنطق».

وأمّا المقدّمة الثانية فتتمثّل في عرضه لأفكار الفلاسفة بأمانة لا مثيل لها، هي كتابه **مقاصد الفلاسفة**.

ولم يبق له بعد تينك المقدّمتين سوى عرض أفكار الفلاسفة المناقضة للإسلام ليَهُدَّها من أركانها الواحدة تلو الأخرى، وهذا ما فعله الشيخ الثميني، بجعله **تعاظم الموجين** مقدّمة لكتاب **معالم الدين**، وهذا ما يدعونا إلى الإشارة إلى تأثير الغزالي.

تأثير الغزالي في التوجّه العامّ نحو الأخذ بالمنطق

لقد كانت دعوة الغزالي إلى الأخذ بالمنطق ذات تأثير كبير على المفكّرين الإسلاميّين عمومًا، وإذا كان نقده للفلسفة اليونانيّة جعل المسلمين يهملونها فإنّ دعوته الأولى للأخذ بالمنطق جعلتهم يهتمّون به اهتماما كبيرًا، وأصبحوا يؤلّفون فيه الكتب ويستخدمونه في مباحثهم الكلاميّة والفقهيّة،

كما أصبحوا يحدّدون مصطلحاتهم انطلاقا منه، ويخرجون حججهم في صورة القياس المنطقي وينادون بضرورة تعلّمه.

وهكذا فقد أثّر الغزالي تأثيرا كبيرا في الوطن الإسلامي عامّة.

أمّا تأثيره في المغرب العربي فقد كان بواسطة ابن تومرت (ت524هـ/1129م) الذي أيّد شيخه الغزالي في هذا وطبّق منهجه[51]. وذلك أنّ المنطق قبل عهد الموحّدين كان يعتبر من العلوم التي يجب تركها، ولكن عندما رجع المهدي من المشرق بعد دراسته على الغزالي الذي أفتى بأنّ من لا يعرفه لا يوثق بعلمه، أصبح للغزالي ومؤلّفاته مكانة كبيرة في المغرب العربي، فبدأ العلماء على اختلاف تخصّصاتهم يهتمّون بالمنطق حتّى الفقهاء، وذلك أنّ الغزالي طوّع المنطق للفقه وضرب الأمثلة والشواهد على مسائل المنطق من مسائل الفقه وألفاظه ليقرّبه إلى الأذهان، فأزال المهدي ما كان بالنفوس من اشمئزاز من المنطق وتعوّر منه، وحبّب كتب الغزالي للنّاس، وعرف النّاس أنّه يوافق الغزالي، فاهتمّو ا بكتب الغزالي وأعجبوا بها وبما رأوا فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم يروا مثله في غير كتب الغزالي، فأخذت العناية بالمنطق منذ القرن 6هـ وانتشر بشكل واسع في القرن 7هـ[52]، وبرز فيه كثير من العلماء وألّفوا فيه الكتب وأدخلوه في العلوم منهجا للفهم والتقرير والبرهان. وبهذا الانتشار بعلم المنطق اختلط بالعلوم الأخرى كالكلام والفقه والأصول وغيرها، بحيث أصبحت تعتمد عليه كمنهج في تبويبها والاستدلال على مسائلها، وقد انقرضت نزعة المعارضة له تدريجيا وأصبح يعدّ من العلوم التي يأخذها كلّ متعلّم كما يأخذ النحو والفقه وغيرهما. وألّفت فيه المتون نظما ونثرا، واندمج في سائر العلوم واندمجت سائر العلوم به، كما هو الحال عند ابن عرفة (ت 803هـ/ 1400م) في كتابه **الحدود** وفي **مختصره الفقهي**[53]. ولقد كان ابن عرفة كثيرًا ما يوصي على تعلّم فنّ المنطق ويؤكّد الوصيّة ويقول لتلاميذه ما معناه: «لابدّ أنّ أموت وترحموني على

---

(51) فضيلة أستاذنا د. عمّار طالبي، **آراء أبي بكر بن العربي الكلاميّة**، ط1، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ج1، ص1، 15.

(52) عبد المجيد النجّار، **المهدي بن تومرت**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص470، 471.

(53) عبد المجيد النجّار، المرجع السابق، ص473.

هذا»[54]، وعندما نعلم أنّ ابن عرفة كان فقيها من الطراز الأوّل ندرك ما أصبح لعلم المنطق من تأثير في مختلف العلوم، ومنها علم الكلام. ثمّ أتى الثميني في هذا السياق ذاته، أي سياق اعتماد المنطق منهجا في علم الكلام، وهنا نقدّم بعض الملاحظات حول تبنّي الكلاميّين لعلم المنطق.

ملاحظات حول تبنّي علماء الكلام لعلم المنطق

- علماء الكلام الذين أخذوا بعلم المنطق -ومنهم الشيخ الثميني- لم يأخذوا به في صورته اليونانيّة بل نظّفوه من محتواها وطوّعوه للعلوم الإسلاميّة وهو ما يسمّى اليوم بعمليّة «أسلمة العلوم»، وهو ما جعلهم يركّزون كثيرا على جانبه الصوري دون المادّي، لأنّ الجانب الصوري هو الذي يلائم ما نريد أن نضعه فيه من محتوى. ولقد زادت نزعة التجريد فيه مع مرور الزمن إلى حدّ أن أصبح كثير من المناطقة يؤلّفون كتبهم المنطقيّة خالية من الجانب المادّي تماما. فمهّدوا بذلك للمنطق الرياضي الحديث قبل علماء الغرب بقرون، ومن أوضح الأمثلة على هذا **مختصر في علم المنطق** للسنوسي **وشرحه عليه، وتعاظم الموجين** للثميني. وبذلك جعلوه علما إسلاميا.

- أضاف المسلمون فلاسفة وعلماء الكلام إلى المنطق كثيرًا من المواضيع والقضايا التي لم تكن معروفة عند اليونان ممّا يجعلها علما إسلاميا محضا. ومن أهمّ ما أضافوه الدلالات وما يتعلّق بها ممّا جعلها إنتاجا إسلاميا محضًا، وذلك لحاجتهم إلى ضبط دلالات الألفاظ لتناسب دقّة القرآن الكريم، ولتمكّنهم من دحض افتراءات أعداء الإسلام، ولاسيما أنّ الحضارة الإسلاميّة بَذَّتْ غيرها من جميع الحضارات بالمناظرات، وهو ما يتوافق مع حريّة الفكر التي يدعو إليها الإسلام. ولمّا كان أعداء الإسلام يستخدمون الشبهات والمغالطات في التشكيك في الإسلام فكان لابدّ من ضبط دلالات الألفاظ لتحطيم مغالطات الخصوم. ونشير هنا بأنّ المسلمين لم يستخدموا البراهين المنطقيّة القياسيّة فحسب للدفاع عن العقيدة الإسلاميّة ونشرها بل استخدموا أيضا الدلالات وبطريقة مباشرة في البرهنة. وهو ما فعله الثميني كما سنبيّن، وهو ما يدعونا إلى توضيح العلاقة بدقّة بين المنطق وعلم الكلام عند الشيخ الثميني.

---

[54] محمّد بن يوسف السنوسي، **شرح مختصر في علم المنطق**، ورقة 3 / ب.

العلاقة بين المنطق وعلم الكلام عند الثميني

ولكي نوضّح هذه القضيّة يتحتّم علينا إشارة موجزة إلى عصره لنعرف الأسباب التي جعلته يتبنّى المنطق منهجا في علم الكلام أي اتّباع طريقة المتأخّرين كما صرّح هو بنفسه.

عصره: يعتبر عصر الثميني عصر انحطاط عامّ للمسلمين في جميع المجالات والميادين. فمن الناحية السياسية امتاز باشتداد العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، وكثرة الغارات الغربية الصليبية على الجزائر، ولا أدلّ على هذا من أنّ الجزائر استعمرت بعد وفاة الثميني بـ 22 سنة. ومن الناحيتين الثقافية والاجتماعيّة سيطر الجهل على المسلمين وساد التخلّف في جميع الميادين ممّا جعلهم يسيرون في خطّ معاكس للغرب الذي كان يتطوّر باستمرار ممّا جعلهم يقعون فريسة سهلة له. ازداد تفرّقهم وتمزّقهم وانقساماتهم المذهبيّة، حتّى أفتى البعض بأنّ المالكي لا يصلّي خلف الشافعي؛ لأنّ المالكي يجب عليه مسح جميع رأسه في الوضوء، بينما الشافعي يمسح بعض رأسه فقط ممّا يجعل وضوء الشافعي في نظر المالكي باطلا، فتكون صلاته باطلة. وأمّا العلوم فقد غلب عليها طابع الملخّصات لا الإبداع، وشرحها وشرح شروحها، وهنا كيف نصلح المجتمع وندفعه إلى النهوض؟ والجواب بإصلاح العقل، ولكن كيف نصلح العقل؟ بعلم العقل. وما هو علم العقل آنذاك؟ هو علم المنطق، وبعلم المنطق نرفع مستوى العقل، وبعبارة أخرى لكي تحلّ مشكلة تخلّف المسلمين وانقساماتهم ونجعلهم صامدين في وجه أعدائهم يجب علينا أن نحلّ مشكلة المنهج عند المسلمين، وبه يتّسع آفاق العقل. ولمّا كانت العقيدة عند المسلمين هي المحور الذي يبنى حوله كلّ تفكيرهم وسلوكهم وحياتهم فإنّ حلّ مشكلة المنهج إنّما يكون لغرض أساسي هو خدمة علم العقيدة، وذلك لمجموعة من الأهداف، منها:

- شرحها لمعتنقيها.
- تحصين أصحابها.
- الدفاع عنها ضدّ مخالفيها ومعاديها.
- تبليغها.

ولمّا كان العلم الذي يتكلّف بهذه المهمّة هو علم الكلام، فإنّ هذا العلم في نظر الثميني والمتأخّرين يجب أن يبنى على علم المنطق. وهنا ننتقل إلى الحديث عن المنطق عند العلاّمة الثميني، ونبدأه بالإشارة إلى:

أهميّة المنطق

يرى الثميني أنّ «رأس العلم، أي كلّ العلم، البرهان المنطقي، وغيره من العلوم فروعه، لأنّه آلة وخادم لجميعها.

والبرهان من حيث ما دار يتعلّق بثلاثة علوم، أوّلها العدد، وثانيها الهندسة، وثالثها لمنطق»[55].

وبهذا فإنّ المنطق يأتي في المرتبة الثالثة بعد العدد (الحساب) والهندسة وهو أحد أقسام البرهان، والغرض من البرهان عقائدي كما هو معروف.

ولكن متى نبدأ قراءته؟

والجواب: أنّه يُقرأ بعد تهذيب الأخلاق وتقويم الفكر ببعض العلوم الرياضية من الهندسة والحساب. والمقصود بتهذيب الأخلاق في نظرنا أنّ الطفل يجب أن يلقّن أوّلا من العلوم والمعارف والأخلاق ما يجعله يُحسُّ بكيانه كمسلم ويعتزّ بالانتماء إلى خاتم الأنبياء ﷺ، أي يحصّن بالثقافة الذاتيّة ثمّ يلقّن بعد ذلك العلوم الرياضيّة لأنّها تجريديّة محضة ممّا يؤهّلها لفتح آفاق العقل النظري عند المتعلّم فتتكوّن لديه ملكة التجريد والارتفاع عن العالم المادّي المحسوس ويدرك الماورائيات، ويأتي هنا المنطق فيفهمه المتعلّم بسهولة لأنّ ملكة التجريد قد تكوّنت لديه قبلا، والثقافة الذاتيّة قد اكتسبها قبل ذلك، فيأخذ في بناء أفكاره ويقيم براهينه على علم المنطق.

ويقرّر الثميني أنّ هذا المنهج إنّما هو منهج قرآني كما ذكرنا قبلا أثناء حديثنا عن العلاقة بين طبيعة الموضوع المعالَج وطبيعة المنهج المستخدم. ويقرّر أيضا ما ذكرناه في قضيّة التجريد، فيقرّر أنّ العلوم الثلاثة السابقة (العدد والهندسة والمنطق) قواعدها مقرّرة في العقول إجمالا ولكن صعب تفصيلها، فالمتعلّم لها إنّما يتعلّم تفصيل تلك القواعد المركوزة في جبلّة عقله كما قاله السنوسي في حقّ المنطق.

هذه العلوم الثلاثة عقليّة محضة، وما عداها من العلوم لا يكون عقليا صرْفًا، فيجب تعلّمه.

ويتوصّل إلى أنّ تعلّم المنطق إنّما يكون على صفة العبادة، فيقول بعد مقارنة بين النطق والمنطق هذه العبارات الرائعة:

---

(55) ضياء الدين عبد العزيز الثميني، **تعاظم الموجين**، ورقة 57 / أ، ب.

«وقد صدق القائل حيث قال: ما أحسن الكلام من حيث أنّه يبيّن ما في الجنان! وأحسن منه المعنى؛ لأنّه لباب وروضة لأولي الألباب. وما أحسن المعنى ! وأحسن منه استعماله، لأنّه نتيجته. والمعنى بدون الاستعمال عقيم، وما أحسن استعماله ! وأحسن منه ثوابه، لأنّه الغرض المقصود. وما أحسن ثوابه ! وأحسن منه رضا من استعملك، لأنّه لا ينفعك ثواب من استعملك وهو عنك غير راض»[56].

ويتوصّل من خلال ما سبق إلى نتيجة كلاميّة يعتبر ما سبق برهانا على صحّتها قائلا:

«ولهذا الذي ذكرناه قال الله ﷻ لأهل الجنّة أرضيتم بعد ما أعطاهم النعيم ما أعطاهم؟ فقالوا: نعم، لقصور نظرهم عن بلوغ الحقيقة، فقال مولانا عزّ وعلا: لكنّني لا أرضى بإدخالي إيّاكم الجنّة فقط حتّى أُحِلّ عليكم رضواني الذي هو أعظم ممّا أعطوه وأهمّ ممّا ارتضوه، كيف لا، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[57]. فإنّ السلطان والوالد والمعلّم ومن هو في معناهم إذا لم يكن منهم رضوان عمّن ملكوا أمره وإن استفرقوا طرفي النهار عليه بالإنعام كان ذلك عنده إن تفطّن في حيّز الانتقام، فما ظنّك بمن سخطه لا يُقاس، ورضاه ليس له جناس.

وبما قرّرناه تندفع شبهة الأشاعرة ومن حذا حذوهم في قوله تعالى: ﴿لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[58] إذ حملوا الزيادة على النظر، وحملناها على الرضوان لشدّة مناسبته عند ذوي النظر، وقالوا: لا يمكن أن يدخلك أحد في داره وهو عنك غير راض، وقلنا: بل هو ممكن عقلاً وواقع فعلا عند من أنصف وهو بفعله مرتاض»[59].

ونحن رغم اختلافنا مع الشيخ الثميني في قضيّة الرؤية إلاّ أنّنا نرى أنّ المسألة فيها متّسع للعقول، ولا نحاسبه على ما يراه صوابا لأنّه يستند إلى أصول.

وإذا كان ما سبق بعض أهمّيّة المنطق فما هي فائدة تعلّمه؟

---

(56) المصدر نفسه، ورقة 57 / ب.

(57) سورة التوبة، الآية: 72.

(58) سورة يونس، الآية: 26.

(59) المصدر نفسه، ورقة 59 / ب.

فائدة تعلّم علم المنطق، هي: التمييز بين الحقّ والباطل، والصدق والكذب، والخير والشرّ، وبعبارة أخرى: «إيضاح الحقّ بالقياس الصحيح المؤيّد، أي المقوّى بالبرهان الصريح ليكون المرء على ثقة ويقين من نفسه، لأنّه يثلج الصدور، ونصيره من أمره في عمله ويعقبه في صحبته السرور، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ كالمناظر المبطل، ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ كالمناظر المحقّ». وهكذا فإنّ منفعة المنطق تتمثّل في القدرة على تحصيل العلوم النظرية والعمليّة، والهدف منه البرهان.

ولّما كان البرهان قوام علم الكلام وكان قوام البرهان هو المنطق، أدركنا ضرورة المنطق في العلوم كلّها ومنها علم الكلام، وهو ما بيّنه الثميني بوضوح أثناء مناقشته لعلاقة المنطق بالميتافيزيقا.

علاقة المنطق بالميتافيزيقا: أشار باختصار إلى هذه القضيّة وآراء المفكّرين فيها، هل هو جزء من الفلسفة أم ليس جزءا منها. فقيل: خارج من الحكمة، وقيل: من فروع العلم الإلهي، وقيل: قسم على حدة من أقسام الحكمة. ويرى بأنّه معيار العلوم كلّها مستدلاّ بقول الغزالي: لا ثقة بعلم من لم يكن عنده. ويستدلّ كذلك على أهميّة المنطق وفائدته ومنفعته بما ورد في شرح القطب[60] على المطالع «من رام اختبار العلوم فهو عينها، أو رغب في انتقاد نقود المعارف فهو فضّتها وعينها، لا يؤمن من الأغاليط وتمويهات الأوهام إلاّ به، ولا يهتدى إلى سواء السبيل إلاّ بدرك مطالبه، ولولاه ما اتّضح الخطأ من الصواب، ولم يتميّز الشراب عن لامع السراب، وإنّه لمعيار النظر والاعتبار، وميزان التأملّ والافتكار، فكلّ نظر لا يزن بهذا الميزان يبرز في معرض البطلان، وكلّ فكر لا يعيّر بهذا المعيار فهو لا يكون إلاّ فاسد العيار، فيه معان ومصابيح يجلو الدجا...ويتوصّل إلى أنّ أكبر العلماء أوجبوا معرفته مستدلاّ بالفارابي وابن سينا، ليصل إلى أنّه بفائدة المنطق لا بفائدة غيره: حاجّ اللهُ سبحانه المشركين في القرآن العظيم من أولّه إلى آخره[61] وهو ما يؤكّد ما ذكرناه قبلا من أنّ هؤلاء العلماء ومنهم الثميني الذين يأخذون بالمنطق بعد أن نظّفوه من ميتافيزيقا اليونان يرون أنّهم يستخدمون منهج القرآن الكريم لا منهج اليونان.

---

(60) المقصود بالقطب هنا، هو قطب الدّين محمود بن محمّد الرازي (ت 776هـ)، والمطالع هو **مطالع الأنوار** للأرموي في المنطق.

(61) المصدر نفسه، ورقة 59 / أ ، ب.

وهنا نسأل الشيخ الثميني قائلين له:

هل كان الصحابة يعرفون المنطق؟ وهل كانوا يعرفون علم الكلام؟ ويجيبنا الشيخ الثميني بأنّهم لم يكونوا محتاجين لا إلى المنطق ولا إلى علم الكلام. «وقد كانت الأوائل من الصحابة والتابعين لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبيء ﷺ وقرب العهد بزمانه، وقلّة الوقائع والاختلاف، وتمكّنهم من المراجعة إلى الثقات مستغنين عن تدوين العلمين -الشريعة وعلم الكلام- وقد أصبحت الحاجة إليه بعد أن حدثت الفتن بين المسلمين، والبغي على أئمّة الدين وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء»[62].

وهنا فلابدّ من استخدام المنطق منهجا في علم الكلام وهو ما صرّح به الثميني ممّا يدعونا إلى الإشارة إليه.

تصريح الثميني بتبنّيه منهج المتأخّرين: لقد صرّح الثميني بتبنّيه منهج المتأخّرين، أي خط الغزالي ثمّ السنوسي وغيرهما فيقول: «ثمّ لمّا نقلت الفلسفة إلى العربيّة وكانت قبل يونانيّة، وناقلها الفارابي، فلقّب بالمعلّم الثاني، وخاض فيها الإسلاميون، حاولوا الردّ على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة فخلطوا بالكلام كثيرًا من الفلسفة ليتحقّقوا مقاصدها فيتمكّنوا من إبطالها، واستمرّوا على ذلك إلى أن أدرجوا فيه -(أي علم الكلام)- معظم الطبيعيّات والإلهيات وخاضوا في الرياضيات حتّى كاد أن لا يتميّز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيّات، وهذا هو كلام المتأخّرين، وقد سلكنا طريقتهم في ذلك». ونلاحظ هنا رفعة الثميني وسموّ أخلاقه وعلوّ همّته فيما يتعلّق بموقفه من الذين يتبنّون الموقف الآخر الرافض للمنطق والفلسفة في علم الكلام، كالإمام الشافعي وغيره، فيقول عن هذا العلم: «فعلى كلا الرأيين هو أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعيّة ورئيس العلوم الدينيّة وكون معلوماته العقائد الإسلاميّة، وغايته الفوز بالسعادات الدينيّة والدنيويّة، وبراهينه الحجج القطعيّة... وما نقل عن بعض المتقدّمين من الطعن فيه والنهي عن تعلّمه، فهو محمول على القاصر عن

(62) ضياء الدين عبد العزيز الثميني، **كتاب معالم الدين**، ج1، ص17.

تحصيل اليقين والقاصد إلى إفساد عقائد المسلمين، والخائض فيما لا يحتاج إليه من غوامض الفلسفة، وإلاّ فكيف يتصوّر النهي عمّا هو أصل الواجبات وأساس المشروعات»[63]. وهنا ننتقل إلى الإشارة الموجزة إلى كيفيّة بناء علم الكلام على قواعد المنطق:

1) كيفيّة بناء علم الكلام على قواعد المنطق عند الثميني:

عندما ندرس كتاب **معالم الدين** نجده عبارة عن نسق منطقي متكامل من تعريفات ودلالات وأقيسة وبراهين، بحيث استطاع بمهارة عجيبة أن يبني كتابه في علم الكلام على قواعد المنطق، ومن ذلك نجد:

- **التعريفات:** تعريفات الثميني منطقيّة، وتقسيماته منطقيّة، ومن ذلك تقسيمه العلم إلى تصوّر وتصديق، وتعريفه لهما فيقول: «العلم إن كان حكما أي إدراكا، لأنّ النسبة واقعة أو ليست بواقعة فهو تصديق، وإلاّ فهو تصوّر، وهو نوعان متميّزان بالذات وباعتبار اللازم المشهور، وهو احتمال الصدق والكذب في التصديق وعدمه في التصوّر»[64].

- **الدلالات:** أفاض في كتابه المنطقي **تعاظم الموجين** في الحديث عنها مستلهما ما كتبه المناطقة المسلمون السابقون كالغزالي والسندي والقطب الرازي وغيرهم معيدا صياغته صياغة جديدة بما يتلاءم مع غرضه منه[65]. ومن أهمّ الدلالات، دلالة الالتزام وهو ما جعل الثميني يفيض في الحديث عنها، وهنا يجدر بنا أن نشير إلى مجال استخدام هذه الدلالة لتظهر لنا أهمّيتها في علم الكلام، ولتظهر لنا أهمّيّة ما فعله الثميني.

مجال استخدام دلالة الالتزام: يكون في القضايا التي لم يتعرّض لها الخبر المتواتر اليقين بأيّ نصّ واضح صريح، فنجد أنفسنا مضطرّين للدليل العقلي وحده، وهو يتحقّق بمسلكين أحدهما دلالة الالتزام، وثانيهما القياس[66]، ومن هنا ندرك ما لدلالة الالتزام من أهمّيّة.

---

(63) الثميني، **كتاب معالم الدين**، ج1، ص23.

(64) المصدر نفسه، ص28.

(65) ومن أراد التوسّع في هذا فليرجع إلى **تعاظم الموجين**، ابتداء من ورقة 71 / أ.

(66) ولن نتعرّض هنا للقياس طلبا للاختصار، مكتفين بعد الحديث عن دلالة الالتزام بالحديث عن الحجّة.

ولتوضيح كيفيّة الاستدلال بها، نبيّن بأنّه لكي نثبت تلازما بين شيئين لابدّ أن يطّرد ترابط بينهما، بحيث إذا تأمّلت أحدهما تصوّرت الآخر، ولكن بشرط أن يؤكّد ذلك الاستقراء التامّ، بحيث تتبع كلّ الحالات والظروف المختلفة لوجودهما، فإذا وجدنهما متلازمين أبدا نحكم بوجود علاقة التلازم بينهما، كدلالة المآذن في البلدة على إسلام أهلها، فالدالّ هنا ليس علّة للمعلول حتّى نقول إنّ دلالته عليه من قبيل دلالة العلّة على المعلول، لأنّ المآذن ليست علّة لإسلام أهل البلدة، كما أنّنا لا نبصر المدلول مع الدالّ حتّى نقول: إنّ الدليل هو الرؤية والمشاهدة، وإنّما الدالّ هنا شيء خفيّ عن المشاهدة والإحساس، وهنا نتساءل:

كيف دلّت هذه الأشياء على مدلولاتها؟ وكيف نؤمن بها دون أن نراها؟ والحقيقة أنّ طريقة الدلالة عرفت بملازمتها الدائمة لمزوماتها، وتكرّر ذلك دون تخلّف، وتمّ على ذلك الاستقراء فتكوّنت من هذه المقارنة الدائمة رابطة دلالة سارية بينهما.

والاستفادة من هذا البرهان تتمّ بتأمّل ظاهرة ما نشاهدها أمامنا، فإذا وجدناها عن طريق الاستقراء تستلزم حقيقة معيّنة اقتنعنا عقليًّا بوجود تلك الحقيقة وآمنّا بها حتّى ولو لم نرها.

ونستفيد منها كذلك إذا طرح أحد أمامنا دعوى يزعمها فإنّنا قد نستطيع بواسطة دلالة الالتزام أن نعلم صدق تلك الدعوى أو بطلانها، وذلك بأن نبحث عن مستلزمات تلك الدعوى، فإن رأينا تلك المستلزمات كان هذا دليلا على صدق الدعوى، وإن فقدت أو كان الموجود نقيضها، كان هذا دليلا على كذبها، فمثلا الذي يدّعي أنّ منبع نشأة الفكر والفعل في الإنسان إنّما هو شعوره بالحاجة إلى الغذاء، لا نصدّق دعواه إذا تأمّلنا في سائر الحيوانات التي تشترك مع الإنسان في الشعور بالحاجة إلى الغذاء، لكن لم يتكوّن لديها شيء من التفكير والعقل، كما أنّ الذي يشرف بنا على قرية مثلا ويقول لنا: إنّ جميع أهلها مسلمون لا يمكن أن نصدّق كلامه إذا تأمّلنا، فلم نجد فوق بيوتها إلاّ صلبان الكنائس، رغم أنّنا لم نجد أحدا من أهلها، و لم نقف على اعتقاداتهم وما يدينون به عن طريق التجربة والمشاهدة[67].

الحجّة والبرهان : ما يجب الإشارة إليه هنا أنّ الثميني لم يتكلّم على الحجّة والبرهان في كتابه المنطقي **تعاظم الموجين** بل أدرجهما ضمن كتابه الكلامي **كتاب معالم الدين** وقد تكلّم عليها وفقا

---

(67) محمّد سعيد رمضان البوطي، **كبرى اليقينيّات الكونيّة**، ط5، دار الفكر، دمشق، 1397هـ، ص43 – 45.

لطريقة المتأخّرين الذين يختصرون الحديث فيهما إلى أبعد الحدود، لأنّه ليس مقصودا لذاته، بل وسيلة لغيره، وهو ما جعله لا يدرج ضمن الكتاب المنطقي بل أدرجه الثميني ضمن كتابه الكلامي كما ذكرناه ولمّا كان البرهان هو الغرض الأساسي من المنطق كلّه عند علماء الفنّ، فقد جعله الثميني ضمن كتابه الكلامي ليستخدمه مباشرة فيما يريد أن يتوصّل إليه.

ويذكر أنّ للحجّة والبرهان مقاصد، منها[68]:

أ) **الحجّة** : وقد قسّمها بحسب مادتّها إلى قسمين، عقليّة ونقليّة، ولن نشير إلى الحجّة النقليّة طلبا للاختصار، ونكتفي بالإشارة المختصرة إلى الحجّة العقليّة، فيقسمها الثميني وفقا لما هو متعارف عليه عند المناطقة إلى خمسة أقسام:

1) برهان، 2) جدل، 3) خطابة، 4) شعر، 5) مغالطة.

ويشرح كلّ هذه الأقسام ونكتفي نحن بالإشارة إلى البرهان،

فالبرهان ما ألّف من مقدّمات كلّها يقينيّة.

واليقينيات ستّة أقسام، هي:

أ) أولّيات (بديهيات): وهي ما يجزم به العقل بمجرّد تصوّر طرفيه، كقولنا: الواحد نصف الاثنين.

ب) مشاهدات (حسّيات): وهي ما يجزم به العقل بواسطة حسّ مثل الشمس مشرقة والنار محرقة.

جـ) قضايا قياساتها معها: وهي ما يجزم به العقل بواسطة وسط يتصوّر معها كقولنا الأربعة زوج، فإنّه بواسطة وسط حاضر في الذهن وهو الانقسام بمتساويين يجزم العقل بلزوم الزوجيّة للأربعة.

د) تجريبيات: وهي ما يجزم به العقل بواسطة التجربة مرارا، مثل شرب السقمونيا مسهّل للصفراء.

هـ) حدسيات: وهي ما يجزم به العقل لترتيب دون ترتيب التجريبيات مع مصاحبة القرائن مثل: نور القمر مستفاد من نور الشمس.

و) متواترات: وهي ما يجزم به العقل بواسطة حسّ السمع ووسط حاضر في الذهن، وذلك أن

---

(68) استخدمنا كلمة «منها» ؛ لأنّ المقاصد عنده ستّة ونحن لم نشر إلاّ إلى بعضها فقط، ومن أراد معرفتها كلّها فليرجع إلى كتابه **كتاب معالم الدين**، ج1، ابتداء من ص61.

يخبر عن محسوس يمكن وقوعه عن جمع كثير يجزم العقل بامتناع توافقهم على الكذب كقولنا: محمّد رسول الله ﷺ ادّعى النبوءة وظهرت المعجزة على يده...

وبعد الحديث على أقسام البرهان يقوم بشرح الجدل والخطابة والشعر والمغالطة[69]، شرحا مختصرا وافيا بمقصوده وهو في هذا لا يختلف مع ما ذكره المناطقة السابقون.

وهكذا تكلّم الثميني على المنطق من تعريفه إلى الدلالات إلى القياس في كتابه المنطقي **تعاظم الموجين** وتكلّم في **كتاب معالم الدين** على ما يجب أن يملأ به القياس أي ما يجب أن تملأ به القوالب المنطقيّة الشكليّة من محتوى، وهو ما يجعل البرهان صحيحا، بمعنى البرهان يجب أن تكون قواعده الشكليّة صحيحة ومحتواه صحيحا لينتج لنا اليقين ولا نقع في المغالطات، ولا يستطيع الخصوم تغليطنا، ويصبح لدينا ملكة الحجاج العقلي.

2) **تطبيق الاستقراء على مناحي تفكيره:** لم يترك الثميني أيّ جانب في المنطق يفيد في بناء براهن علم الكلام عليه إلاّ واستخدمه، ومن ذلك الاستقراء، ومن المواضيع التي طبّقه فيها قضيّة خلق القرآن الكريم، فنجده يبدأ الحديث عن الفرق الإسلاميّة وينظر إلى آراء بعض كبار المفكّرين في كلّ فرقة لينتقل من فرقة إلى أخرى مطبّقا المنهجيّة ذاتها ليتوصّل في النهاية إلى تصوّره[70] هو.

ونستطيع تلخيص منهجه المنطقي بالقول بأنّه تمكّن من الوصول إلى النسق المنطقي المتكامل.

3) **أسباب العلم الحاصلة للخلق:** يكمل الثميني ما سبق بحديث عن وسائل المعرفة وهو ما يسمّى بنظريّة المعرفة[71]، فيرى أنّ بعض المفكّرين حصر أسباب العلم الحاصلة للخلق (وسائل المعرفة) في ثلاث طرق هي:

أ- الحواس السليمة: ويقوم بشرحها شرحا دقيقا من حواس خمس وحسّ مشترك الخ.

ب- الخبر الصادق: الرسول ﷺ وما يأتي به من وحي.

---

(69) الثميني، **كتاب معالم الدين**، ج1، ص61، 62.

(70) المصدر نفسه، ج2، ص24 – 28.

(71) هذا الموضوع لأهميّته يجب أن يفرد له بحث خاصّ به.

جـ- العقل بحكم الاستقراء: ويبرهن على كلّ هذا ببراهين دقيقة[72].

ويجب أن نشير بأنّ ما قرّره في هذه الوسائل هو الذي بنى عليه تصوّره في **كتاب المعالم** ومن الأمثلة على هذا فإنّه تبنّى المنطق ليردّ على الفلاسفة والسفسطائيّة والدهريّة وجميع الملل والديانات الشرقيّة سواء كانت في الهند أو في بلاد الفرس أو غيرها[73]. وهذا لا يتأتّى لإنسان إلاّ إذا استلهم كلّ التراث الإنساني وأعاد صياغته بما يوافق عقيدة الإسلام، كما أنّه تميّز بالاعتدال ولا سيّما فيما يتعلّق بمكانة العقل في المعرفة والعلاقة بينه وبين الشرع، وممّا يتجلّى فيه هذا بوضوح نقده للمعتزلة في قضايا جوهريّة تعدّ من أصول مذهبهم منها:

- ردّه عليهم في قولهم بأنّ الإنسان يخلق أفعاله.
- ردّه عليهم في قولهم بوجوب الصلاح والأصلح على الله ﷻ.
- ردّه عليهم في قولهم بأنّ الحسن والقبح عقليان.
- ردّه عليهم في قولهم بأنّ العقل يدرك حكم الشرع في الأفعال وإن لم يبعث نبي[74].

وخلاصة رأيه في العقل: «أنّ العقل ميزان صحيح ولكنّك لا تستطع أن تزن الجبال بميزان الذهب».

وأمّا ما يتعلّق بالمعرفة الحسّيّة، فإنّه استطاع أن يميّز بمهارة عجيبة وقدرة فذّة بين الطابعين الفلسفي والنفسي لوسائل المعرفة الحسّيّة، بل نستطيع القول بأنّ دراسته لوسائل المعرفة الحسّيّة كانت أقرب إلى علم النفس الحديث منها إلى الفلسفة، وعندما نعلم أنّ وسائل المعرفة الحسّيّة تدرس اليوم في سيكولوجيّة الوظائف، وأنّ هذه الدراسة لها لم تقرّر إلاّ بعد انفصال علم النفس عن الفلسفة أدركنا قيمة الثميني وعبقريّته في قدرته على الفصل بين الجانب الفلسفي والجانب النفسي لوسائل المعرفة الحسّيّة، وتوظيف ذلك الجانب النفسي في منهجه. وهذا لم يكن شائعا في عصره على مستوى العالم. وعندما نعلم حالة العالم الإسلامي العقليّة آنذاك من تخلّف وجمود أدركنا مكانته ليس على مستوى

---

(72) الثميني، **كتاب معالم الدين**، ج1، ص61- 64.

(73) المصدر نفسه، ص119 – 123.

(74) المصدر نفسه، ص261...نهاية ج1.

العالم الإسلامي فحسب، بل على مستوى الفكر الإنساني عامّة. كلّ هذا دفاعا عن عقيدة خاتم الأنبياء ﷺ وخدمة لها، وهياما في جنابها، وتشرّفا باعتناقها. وربّ معترض على كلامنا قائلا: لماذا لم نَرَ أثر الثميني في إيجاد دراسات نفسيّة في الجزائر مثلا أو في العالم الإسلامي؟ والجواب أنّ مشكلتنا نحن المسلمين بعد عصور الانحطاط تكمن في انعدام الاستمراريّة، وهو ما يميّز بيننا وبين الغربيين بعد عصر النهضة، فالغربيون بعد عصر النهضة أصبحت الدراسات العلميّة عندهم وغير العلميّة عبارة عن سلسلة مترابطة، فالعالم الذي يتوصّل إلى نتيجة يأتي بعده من يواصل مسيرته ويصحّح أخطاءه. وهذا الأخير يتبع معه المنهج نفسه، وهكذا دواليك. وبهذا تتطوّر العلوم والمعارف، وهذا ما كان عندنا نحن المسلمين أيّام حضارتنا المجيدة.

أمّا حالنا في عصر الانحطاط التي أعقبها الاستدمار الصليبي، فهي التوقّف والوقوف، وعندما يظهر عبقري فإنّ عبقريّته تتوقّف بعد موته في كثير من الأحيان لتتعرّض للردم وربّما الهدم المغرض لمبرّرات ما أنزل الله بها من سلطان.

وإذا كنّا لا نؤمن أنّ الثميني تعرّض فكره للهدم المغرض، فإنّ بحثه في المجال النفسي لم يواصله العلماء الذين أتوا بعده.

ويمكننا أن نتوصّل من كلّ ما سبق إلى أنّ الثميني درس كلّ تراث عصره من فلسفة ورياضيات وفلك وفكر إسلامي وفروع الدين وأصوله أي كلّ علوم عصره، واستوعب كلّ ذلك وحلّله تحليلا نقديا لهدفين أساسيين أحدهما أصل والثاني ناتج عنه، هما:

1) خدمة الإسلام عقيدة وشريعة.

2) خدمة المذهب الإسلامي الإباضي.

واطّلاعه الواسع جعله يتفتّح على الفرق الإسلاميّة ويحدث تقاربا كبيرا بين مذهبه الإباضي والأشاعرة، ليس في قضيّة أفعال العباد فحسب، التي لا خلاف فيها بين الأشاعرة والإباضيّة بل في قضايا أخرى أيضا لها أهمّيتها كموقفه من قضيّة الصلاح والأصلح، والحسن والقبح، وموقفه من العقل فيما يتعلّق بقدرته أو لا قدرته على الوصول، إلى كلّ ما أتى به الشرع قبل نزول الوحي،وذلك في ردّه على المعتزلة، وكذلك توافقه التامّ في قضيّة رؤية الله ﷻ مع ما يذكره الغزالي.

وهكذا تتجلّى قيمته ليس كعظيم من عظماء الإباضيّة فحسب، بل كعظيم من عظماء الإسلام ممّا يجعلنا لا نصنّفه في المجال المعرفي ضمن علماء الإباضيّة وحدهم، بل ضمن علماء الإسلام ككلّ. وهنا في إطار تثميننا للثميني نتساءل:

ما مجال استخدام المنطق في علم الكلام؟

وبعبارة أخرى: هل علم العقيدة أو علم الكلام في حاجة إلى المنطق؟

والجواب في نظرنا: أنّ القرآن الكريم والسنّة الصحيحة المتواترة يغنيان عن المنطق تماما في معرفة العقيدة، «فالسلف الصالح ﷺ كان علمهم من القرآن وهديهم من محمّد ﷺ، وكانوا مع ذلك أقوى الناس إيمانا، وأشدّهم يقينا، وأكثرهم اطمئنانا. وقد سلك المسلمون من بعدهم سبيلهم واتّبعوهم بإحسان»[75]، وهو ما بيّنه الثميني قبلا. والقرآن الكريم لا يبيّن العقيدة على جهة الإخبار فقط، «بل فيه الأدلّة المنتجة يقينا، ففيه الحثّ على النظر وتوجيه العقول إلى الكون ودلالته على الخالق...والمسلمون الأوائل وجدوا فيه الأدلّة التي انتهت إلى التصديق الصحيح، وكذلك الكثير من علماء الأديان والحكماء الذين اعتنقوا الإسلام، لم يجدوا نقصا في استدلال القرآن، كما لم يجدوا في أدلّته مدخلا للاحتمال»[76]. ولكنّه لمّا كان العقل من أهمّ أسلحة القرآن، وكان المنطق هو قانون العقل، وكان كثير من أهل الملل والنحل متعصّبون لآرائهم واتّجاهاتهم مستخدمين المنطق في البرهنة والمجادلة، يهاجمون عقيدة الإسلام، مستهزئين به، فإنّ المسلمين مضطرون لدراسة المنطق لدرء حجج أولئك المبطلين، وتبيين زيف استدلالاتهم باستخدام المنطق كميزان، إذ يكفي أن يوضع الكلام الزائف في شكل قياس منطقي، وتتعرّف الحدود في كلّ أجزائه، ويعرف العموم والخصوص في مقدّماته ليظهر الصحيح من الفاسد[77]. إضافة إلى وضع القوانين العامّة التي ينبغي أن يسير التفكير بمقتضاها[78]، وهو ما يفيد في الجدل مع أهل الملل والنحل.

---

(75) ابن تيميّة تقيّ الدين، **نقض المنطق**، تحقيق محمّد عبد الرزّاق حمزة وسليمان بن عبد الرحمن الصنيع، دط، مكتبة السنّة المحمّديّة، القاهرة، د.ت، ص169.

(76) محمّد أبو زهرة، **ابن تيميّة حياته وعصره**، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص251.

(77) المرجع نفسه، ص255.

(78) توفيق الطويل، **أسس الفلسفة**، دط، دار النهضة العربيّة، مصر، د.ت، ص419.

ونختم موضوعنا هذا بالجواب على التساؤل الآتي:

ما مدى احتياجنا اليوم إلى المنطق؟

والجواب: أنّ الحضارة عندما تقوم، فإنّها يجب أن تستوعب كلّ معارف عصرها وتبدع وتطوّر، وإلاّ ما كانت حضارة. والمسلمون الأوائل وجدوا أنّ قمّة الإبداع العقلي إنّما هو المنطق، فَطَوَّرُوهُ وأبدعوا فيه واستخدموه في تحقيق أهدافهم، ولكن الذي يسيطر اليوم على العالم وعلى العقل والتفكير ليس المنطق الصوري؛ بل التفكير العلمي والتطوّر التكنولوجي المذهل. وهذا ما يدعونا إلى إعادة النظر في علم الكلام وتجديده ليحقّق أهدافه، ولا سيما أنّ وسائل العدوان على الإسلام اليوم تنوّعت، وهذا يدعونا إلى الإشارة إلى أهمّية علم الكلام في العصر الحديث وضرورة تجديده:

إنّ لعلم الكلام أهمّيتان:

1) أهمّية تاريخيّة بحيث نفهم من دراسته الدور الجبّار الذي قام به أسلافنا في الدفاع عن العقيدة الإسلاميّة والمناهج التي استخدموها والعلوم التي استوعبوها لتحقيق غايتهم، ومن هنا فإنّ دراستنا لعلم الكلام ليس الغرض منها إحياء تلك المشكلات من جديد، بل دراستها دراسة نقدية تقوم على التقريب بين وجهات النظر لا على التفريق.

2) أهمّية آنيّة ومستقبليّة، لأنّ موضوعه هو العقيدة، وهي ليست ماض فقط، أو حاضرا فقط، بل هي الحياة كلّها متعاليّة على الزمان والمكان، وهي تقوم على العلاقة بين الله والإنسان، ولابدّ من تصوّر بشري لهذه العلاقة بين الإله المعبود والعبد العابد. القدامى تصوّروها بناء على فهمهم القائم على العلم السائد في عصرهم.

والعلم تطوّر كثيرا الآن وتوسّع، فاتّسعت نتيجة لذلك معرفة الإنسان بنفسه، وبالعلم الطبيعي وغيره. ومن هنا يجب أن يتغيّر منهجنا في تناول الموضوعات الكلاميّة ذلك أنّ منهج الأقدمين كان يقوم على الاستدلال الفلسفي المنطقي واستخدام الأقيسة العلميّة.

أمّا طبيعة الأدلّة في عصرنا، فهي تقوم على الواقع والتجربة والعلم.

ومن هنا فإنّ علم الكلام الجديد يجب أن تتمثّل حقيقته في استجلاء حقائق الدين بالأدلّة التي تطمئن الذهن الجديد والعقلية الجديدة، وتوصيل التعاليم الإسلاميّة بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد.

والعقل الجديد هو العقل العلمي، وهذا المنهج هو منهج قرآني، ومعنى هذا: يجب أن لا أكون متخلّفا ذهنيا وعلميّا عن العصر الذي أعيش فيه، أي عن الناس الذين يهاجمونني، ولا سيما أنّه ظهرت جوانب إلحاد جديدة تحت ستار العلم، وهي جوانب تحمل أفكارا هجوميّة لم يعرفها أسلافنا، مثلا:

- البيولوجيا: نظريّة التطوّر، الاستنساخ.
- الفلسفة الماركسيّة.
- فلسفة أوغست كونت.
- الفلسفة الوجودية.
- البراغماتيّة (المنفعة دون القيمة).
- التحليل النفسي (الليبيدو)...الخ.

ومن هنا فلا بدّ أن يستوعب علم الكلام الحديث كلّ هذه المعارف ويعيد صياغتها. ومن هنا فإنّه لا بدّ من إتقان واستيعاب كلّ علوم العصر واعتمادها في البرهنة على حقائق التوحيد، لأنّه لا يمكن أن يصدّق بعقيدتك من صعد إلى القمر بالفعل عندما تزعم أمامه أنّ دينك ينكر الصعود إليه.

والخلاصة: منهج علم كلام القدامى استوعب العلم السائد في عصره ليبطل الإلحاد. وعلم كلامنا يجب أن يستوعب علوم عصرنا ليردّ على الملحدين في عصرنا، وخاصّة أنّ سمة عصرنا هي الإلحاد، وسمة الإلحاد في عصرنا هي العلم، فهو إلحاد باسم العلم. فعلى علم الكلام أن يخوض دائرة العلم المعاصر، ليستوعب سلاح الخصم ويتفوّق عليه[79].

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(79) ومن أراد التوسّع في هذا فليرجع إلى عليّ عبد الفتّاح المغربي، المرجع السابق، ص114، 117.

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج الاختصار عند الثميني من كتاب أبي مسألة والألواح

بقلم الأستاذ: محمّد بن أيوب صدقي

اقتضت حكمة الله وسعة رحمته أن لا يترك الناس هَمَلا، كما لم يخلقهم عبثا. فما زوّد به الإنسانَ من عقل قد مكّنه من فتح خزائن الأرض واستثمار خيراتها. لكن ما جُبِل عليه من سلطان الهوى وطغيان الغرائز قد يدفعه إلى تجاوز حدّه والعدوان على حقوق غيره. من هنا كان ما أنزل الله في القرآن من موعظة وشفاء وهداية خير سند للتعرّف على التي هي أقوم من السبل المثلى في التحلّي بالإيمان والتمتّع بالرحمة. وكانت تصرّفات رسول الله ﷺ قولا وعملا وإقرارا خير أمثولة توضّح معالم هذه الهداية، و لم يرحل عن عالَمنا إلاّ بعد أن أسّس أرضية صلبة من قِيَم عالية ومناهج بيِّنة. وتشرّف مِن بعده الصحابة بفضل التخرّج في مدرسة الرسالة، فكانوا صوَرًا مثالية للمشاهدة والتبليغ. وخلفهم الراسخون في العلم من التابعين ومَنْ بعدهم يسترشدون على ضوء هذا التراث الفكري من مناحي الفقه الإسلاميّ كيف يسلكون. وكيف يُبرِءون ذمّتهم في تبيينه للناس والتنصّل من كتمان العلم. و لم يكونوا في مستوى واحد من الدراية ولا كانوا على نمط واحد من الفكر ولا جُبلوا على وتيرة واحدة من التحرّج وسعة الأفق. ومن هنا اختلفت تصوّراتهم للمراد من النصوص إن ثبتت قطعيّتها سندا وتعدّدت احتمالاتها مفهوما أو اختلف تأكّدهم من صحّة النصّ ويقينيّة صدوره من النبيء، فظهرت في الفقه الإسلاميّ وجهاتُ نظر حول المسألة الواحدة، وهذا في ذاته قيِّم يؤتي كلّ نفس هداها وكلّ أمّة تقواها، و لم يكن أيٌّ من العلماء يرى لنفسه العصمةَ فيما ذهب إليه من رأي، ولا كان يحجِّر على الناس أن يستفيدوا من غيره ويأخذوا من ا لأقوال ما يبدو لهم أنّه أرجح. وقد نستبين هذه الحقيقة على ضوء المثال الآتي «روي عن عبد الوارث بن سعيد أنّه قال: قدمت مكّة فألفيت بها أبا حنيفة فقلت: ما تقول في رجل باع بيعا وشرط شرطا؟ فقال: البيع باطل والشرط

باطل، فأتيت ابن أبي ليلى فسألته عن ذلك، فقال: البيع جائز والشرط باطل، فأتيت ابن شُبرُمة فسألته عن ذلك، فقال: البيع جائز والشرط جائز، فقلت في نفسي: سبحان الله، ثلاثة من فقهاء العراق لا يتّفقون على مسألة، فعدت إلى أبي حنيفة فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما قالا لك. حدّثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع وشرط. فعدت إلى ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما قالا لك. حدّثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت: أمرني رسول الله ﷺ أن أشتري بريرة فأعتقها، فاشترط أهلها الولاء لأنفسهم، فقال رسول الله: ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل. البيع جائز والشرط باطل، قال: فعدت إلى ابن شُبرُمة فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما قالا لك. حدّثني مِسعَر بن كِدام عن محارب بن دِثار عن جابر قال: بعت النّبيء بعيرا وشرط لي حملانه إلى المدينة: البيع جائز والشرط جائز»[1]. ومن الأقوال المنسوبة إلى الإمام جابر بن زيد: «ليس للعالِم أن يقول للجاهل اِعلم مثل علمي وإلاّ قطعت عذرك»[2]. ويقال إنّ الخليفة هارون الرشيد عَرض على الإمام مالك أن يفرض على الناس العمل بكتاب الموطّأ بقوّة السلطان، فرجاه أن لا يفعل وقال له: إنّ الصحابة قد تفرّقوا في الأمصار وكلّ يأخذ بما صحّ عنده. وعندما سئل -الإمام مالك- عن الاستواء فأجاب: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة. كان هذا يمثّل وجهة نظر في التحرّج من الفتوى والمبالغة فيما يُعرف بـ«دعْها حتّى تقع»، بينما ينسب للإمام أبي حنيفة قوله: «إنّي آخذ بكتاب الله إذا وجدته. فما لم أجده فيه أخذت بسُنّة رسول الله ﷺ والآثار الصّحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا سُنّة رسول الله أخذت بقول أصحابه مَن شئت وأدع قول مَن شئت ثمّ لا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيّب فلي أن أجتهد كما اجتهدوا»[3].

فهذا منهج يقلّل من الاعتماد على المرويّ عن التابعين وحرّيّة الاستدلال الشخصي، حتّى شاعت عنه الحيل الشرعيّة. كما حُكي عن الإمام مالك أنّه تجهّم في وجه من استفتاه عن حكم مَن

(1) **ضحى الإسلام** لأحمد أمين، ج2، ص166.

(2) **طبقات الدرجيني**، ج2، ص213.

(3) **ضحى الإسلام**، ج2، ص187.

حَلَف أن يجامع مع امرأته في نهار رمضان بينما أفتاه أبو حنيفة أن يسافر بها. فكلٌّ من الإمامين يمثّل تصوّر التشريع من منظور خاصّ. وما وجود مذهبين قديم وجديد للإمام الشافعي إلاّ أثر لتغيّر وجهة نظر المجتهد تجاوبًا مع اختلاف الظروف وتطوّر التجربة. وحين تقدّم وفد إباضيّ برئاسة الشيخ أبي الحرّ عليّ بن الحصين العنبري أحد أساطين الإباضيّة بالحجاز في القرن 2 الهجري للخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حين تولّى الخلافة بطريق الوراثة، وهو أسلوب غير معترف به عند الإباضيّة -كما هو معلوم- لكن الخليفة أبدى رغبة في إصلاح الوضع ومحاربة البدع، فرأى الوفد أن يفاتحه في قضيّتين تُعتبران من صميم النزاع السياسي آنذاك: ما قولك في فتنة الصحابة؟ أجاب الخليفة عمر: «دماء طهّر الله منها سيوفَنا، فلنطهّر منها ألْسِنتنا». وسألوه ما ترى فيما استحدثه الحكّام من قبلك؟ فأجابهم: «أعاهدكم على أن أحييَ كلّ يوم سُنَّة، وأُميتَ بدعة»، فردّوا عليه: ومَن يضمن أن تعيش حتّى تموت البدع؟ ثمّ انصرفوا بعد أن صارحوه بأنّهم لم يتولّوه. وعندما عرض الوفد موقفهم هذا على الشيخ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة أحد أساطين الفكر الإباضي بالعراق أجابهم: «لِمَ لَمْ تقبلوا منه؟» فمع أنّ الرجلين ينتميان إلى مذهب واحد لم يكونا على وِفاق في الموقف المتَّخذ بسبب تأثّر كلّ منهما ببيئة الإقامة.

هكذا تبيّن لنا أنّ الرأي والرأي الآخر كانا يسودان الفكر التشريعي لدى القدماء على ما بينهم من جدل ونقاش ما دام كلّ مجتهد ينطلق من مبدأ تقدير المسؤوليّة، وينطق على أساس التوقيع عن الله، والتقيّد بمقاصد الشريعة، وما دام رائدهم في كلّ ذلك مراعاة مناهج الأصول واستثمار مصادرها من الكتاب والسنّة والإجماع والقياس.

والواقع أنّ مجرّد اختلاف العلماء في الرأي ليس لذاته مثاراً للتصارع ولا تضايق الإسلام بالحوار مبعث ما ورثه المسلمون من ضغائن على مرّ العصور، وإنّما هو التدخّل السياسي في الحقل العلميّ هو الذي يعبّئ هذه الطاقات الشعبيّة لتخدم وجوده وتكفل استمراريته استبقاء للكرسيّ وقمعًا للمعارضات، لذلك نجد حدَّة الانقسام في المجال العقدي أعنف منها في مجال التشريع لابتعاد هذا الأخير نسبيا عن التيارات السياسية. و لم ينس التاريخُ قضيّة استغلال المنصور لفتوى الإمام مالك: «طلاق المكرَه لا يلزم»، ولا محنة خلق القرآن وما أثارت من ضجّة على عهد المأمون والخليفتين من بعده: المعتصم والواثق.

والحقّ أنّنا لا نملك إلاّ الإعجابَ بالمساعي الحميدة وما حفِظته لنا الأيّامُ من هذا التراث القيّم في حقل التشريع. وأن نقدّر لهم هذا التطعيم بين مدرستي الرأي والسُّنّة بالافتراضات الفقهيّة والعناية برواية الآثار ممّا ساهم بشكل كبير في هذا الرصيد الفريد من نوعه. إلاّ أنّنا بقدر ذلك نأسف أشدّ الأسف إذا نظرنا من خلال أربعة عشر قرنا لتعاملنا مع هذا التراث الذي لم نقدّره حقّ قدره فتمسّك الكثيرُ منّا بخلفيات ممّا أثارته السياسة في الحقل العلميّ وما جرّته من ويلات انقسام لا يزال الكثيرون يجترّون نفاياتها عن جهالة أو نوايا يعلم الله مدى ما أحدثت من متاريس بين مذهب وآخر لأسباب لا يجهل أكثرنا في هذا العصر أنّها تجاوزتها الأحداث، فمن العبث الشديد أن نحافظ على هذه اللافتات التي علقت على كثير من الآراء الفكرية في الإسلام وصنّفتها ضمن فِرق ضالّة أو مبتدعة أو خوارج وأشباهها ممّا ينمّ عن رواسب ما كان لها أن تعيش عصر الكمال الفكري، وأنّ ما أشيع على السنّة المتحدّثين على الدوام من حصر الفقه ضمن مذاهب أربعة يعطي انطباعا عن مدى انحصار الإسلام في هذا المجال المربّع ويولّد ارتيابا في مدى جدّيّة انتساب ما عداها إلى صميم الإسلام أوَ لا يعلمون أنّ ما أسدته تلك المذاهب المنقرضةُ أو المغمورة مثل مذهب الليث بن سعد والأوزاعي وفِرق المعتزلة ونظريات الشيعة من خدمات لإثراء الفكر الإسلاميّ لا تقلّ أهمّية عمّا دوّنته الدراسات عن المذاهب التي حظيت بالانتشار لظروف ساعدتها على ذلك. وقد يزيد هذه الحقيقة تعقيدا أنْ أبرزوا هذا التربيع بأنّهم يعنون به مذاهب السُّنّة والجماعة -كما يقولون-، وماذا يُقال عن مذهب صنّف خارج دائرة السُّنّة والجماعة ؟ !

وكم من عالِم تفرّد بفتوى عن رفاقه أو مجتهدي عصره ثمّ تكشّفت الأيّام بعد ذلك عن حصافتها ودقّة بُعد النظر فيها، وأذكر على سبيل المثال سؤالا توجّه به أحد المستفتين لجماعة من شيوخ الأزهر أنّه رأى النبيء في المنام ودلّه على كنز في مكان عيّنه له وأعفاه من دفع خُمُس الرّكاز. فوجد الكنز كما وصفه فأفتاه سبعة منهم أنّها رؤيا حقّ وأنّ الشياطين لا يتمثّلون الأنبياء والرسولُ في حياته قد منح خصوصيّات لكثير من الأفراد، إلاّ واحدا منهم أجاب: أنّ عثوره على الكنز أمر يهمّه صحّت الرؤيا أو لم تصحّ، وأنّ الإسلام كمُل بوفاة النّبيء، ولم يعْلمنا أنّها ستأتي أحاديث في المنام تنسخ أحاديث اليقظة. وكم من عالِم لم يَحظ بالشهرة حتّى في دائرة مذهبه تنبّه إلى فكرة لم يوفّق إليها الكثير من نظرائه المجتهدين. وتحضرني بالمناسبة فتوى الشيخ أبان بن وسيم النفوسي من علماء الإباضيّة بليبيا على عهد الإمام أفلح الرستمي إذ فسّر حديث قصر الصلاة في السفر الذي روي فيه

أنّ النبيء نقل طائفة من أصحابه إلى ذي الحليفة -ما يقرب من مسافة 12 كلم- وقال لهم أردت أن أعلّمكم حدّ السفر، أي حدّ بداية القصر في السفر، واستقرّ لدى غالبية المذاهب الإسلاميّة أنّ هذه النقطة هي بداية القصر، لكن أبانا يرى أنّها بداية للمسافة التي يعتبر تجاوزها سفرا مبيحا أو موجبا للقصر، إذ السفر أصلا يبدأ من حيث ينطلق المسافر من مقرّ إقامته. وهو رأي يدلّ على حصافة فائقة وإن لم يشتهر كرأي سائد في مجال الفتوى.

فأين نضع من نزاهة التحقيق العلمي بحثا يرى صاحبه أنّ فِرق الخوارج، ومن بينها المذهب الإباضي -في حسابه وهذا محلّ نظر أيضا- ينتمي أتباعها إلى الذين قال أحدهم للرسول أعدل! فأجابه الرسول: ويلك فمن يعدل إذا لم أعدل[1]، وهل يمكن استلحاق من يعتقد أنّ الإيمانَ قول وعمل بمن جاهر الرسول بنفاقه. ﴿ادْعُوهُمْ لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ﴾[2].

وأين من تقدير المسؤولية خطيب يتحدّث عن مذهب عريق في أصالته الإسلاميّة فيصفه بما شاء له الهوى والتعصّب: أنّه من الفِرَق الضالّة والمبتدعة الخ، ولمّا سئل هل اطّلعت على أصولهم؟ أجاب أنّي لا أعرف إلاّ المذاهب الأربعة ! ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾[3].

وماذا يفيد الناس في هذا العصر النبش في مجاهل التاريخ عن فتاوٍ أو مصنّفات ممّا ترك آل موسى وآل هارون تسيء إلى المسلمين في وحدتهم وهم أحوج ما يكونون إليها لمواجهة مشاكل عصرهم والمؤامرات الإلحادية التي لا تفرّق بين أحد منهم. والغريب أن لا يتورّع هؤلاء المتنابزون بالألقاب حتّى من نشر هذه الفضائح على شبكة الانترنات!!، أليسوا يتلون في الكتاب ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾[4].

وهل يليق بمثقّف متحرّر معاصر أن يزهد في اقتناء كتاب مثل أبي مسألة لأنّه قيل له عن مؤلّفه إنّه خارج عن دائرة الاتّحاد الرباعي! أليست الحكمة ضالّة المؤمن يلتقطها حيث يجدها.

---

(1) **آراء الخوارج الكلامية** للدكتور عمّار الطالبي، ج1، ص46 وما قبلها.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 5.

(3) سورة آل عمران، الآية: 66.

(4) سورة البقرة، الآية: 134، 141.

ثمّ يجدر بي في هذا المقام أن أنوّه بهذه البادرة المباركة التي تشرّفت الجمعيّة القطبيّة مشكورة بتأطيرها وبتلبيّة طائفة من الأساتذة الأجلاّء لدعوتها، إيمانا بواجب تسليط الضوء على جانب هامّ من مساهمات العاملِين في حقل تنوير الفكر وإنارة البصائر وتعريف الناس بمنجزات الذين تركوا بصماتهم على مرّ العصور في إثراء هذا التراث الضخم.

ورأيت في هذه المساهمة المتواضعة أن أتحدّث عن إفادة الشيخ ضياء الدين الثميني باطّلاعه على جانب من مؤلّفات القدماء وتقديمها على شكل ملخّصات أو مقتبسات لأبناء جيله. واخترت لتلك أن أتناول منهجيّته من خلال كتابه الذي سمّاه **المصباح المقتبَس من كتاب أبي مسألة والألواح** للشيخ أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن بكر الفرسطائي الأصل. وذلك في محاور ثلاثة:

- الهدف من التلخيص بصفة عامّة.
- التعريف بالكتابين الأصلين ومؤلّفهما.
- مقتطفات من التأليف الأصلي مقارنة بنظائرها من كتاب المصباح.

أ) شاعت ظاهرة اختصار تآليف القدماء في أوساط المشايخ المدرّسين في هذه القرون الأخيرة، وهي أصلا بمنزلة مذكّرات لدروسهم تستهدف تقليص حجم النصّ الأصلي:

- أوّلا: لاستيعاب أكثر ما يمكن من المعارف في حيّز ضيّق.
- ثانيا: لتسهيل مراجعتها للطلاب وتمكينهم من حفظها.
- ثالثا: لتشويقهم إلى الرجوع للأمّهات بغية التوسّع.

وأبرز مثال على ذلك عمل الشيخ عبد العزيز الثميني في كتابه **النيل** المشتمل على 22 كتابا في العبادات والمعاملات. لخّص معظم التسعة الأولى منها من **كتاب الإيضاح** للشيخ أبي سكان عامر بن علي الشمّاخي (ق8هجري)، و**الأحكام** و**النكاح** من تأليف الشيخ أبي زكرياء يحي بن الخير (ق5هجري)، و**كتاب النفقات** من **ديوان الأشياخ**[1]، و**كتاب الدماء والأفعال المنجية** من تأليف

(1) **ديوان الأشياخ** أو **ديوان العزّابة** يقع في 25 جزءا لعشرة مؤلّفين في القرن الخامس الهجري، وهم المشايخ: يخلف بن أيوب ومحمّد بن صالح (من امسنان، نفوسة) ويوسف بن موسى الدرجيني (من قنطرار) ويوسف بن عمران المزاتي (من تجديت)، ومن ريغ: عبد الله بن أبي سلام الرمولي وجابر بن حمّو الزنزفي وإبراهيم بن أبي إبراهيم الدجمي، =

الشيخ أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن بكر (ت.504هـ)، و**الفرائض** من كتاب الشيخ إسماعيل الجيطالي (ت.750هـ)، أمّا الخاتمة فمن **كتاب جمع الجوامع** للإمام تاج الدين السبكي الشافعي[1] (ت.771هـ).

وقد سلك منهجا آخر وهو الاحتفاظ في الغالب بعبارات الكتاب الأصلي كما نراه في تأليفه لكتاب **المصباح المقتبس من أبي مسألة والألواح**، والغرض فيما يبدو:

1. نقل صورة تكاد تشبه الأصل حرصا على الأمانة العلميّة.
2. تعديل لبعض ما يراه تطويلا لا داعي له.
3. إضافة لاستدراكات يراها ضرورية للإفادة.
4. تعقيبٌ على بعض المعلومات ترجيحا لفتوى أو توضيحا لغموض عبارة أو إتماما لبعض خلل أو إحالة على بعض المراجع أو إقرارا لأصل الفتوى، واستبقاء للتجربة على اختلاف البيئة زمانا أو مكانا.

ب) لم أسجّل تعريفا للشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني مؤلّف **المصباح** اكتفاء بما تفيدنا به الدراسات في هذا الملتقى.

أمّا الشيخ أبو العبّاس المؤلّف الأصلي **لكتاب أبي مسألة وكتاب الألواح** فهو العلاّمة الفاضل أبو العبّاس أحمد بن الشيخ أبي عبد الله محمّد بن بكر الفرسطائي نسبة إلى فرسطاء إحدى قرى جبل نفوسة بليبيا الذي اشتهر بوضعه نظام حلقة التعليم أو نظام العزّابة كما يعرف بشمال إفريقيا.

ولد بقرية تمولست من قرى الجريد بالجنوب التونسي (لا يُعرف بالتحديد تاريخ ميلاده)، وقضى فيها معظم شبابه وتعلّم على أشهر علمائها وفي طليعتهم الشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (471هـ/1079م) الذي تنبّأ له بمكانة مرموقة في إحياء العلم والدعوة إلى الله. يُعتبر من أشهر العلماء المدرّسين وكبار المشايخ المتخصّصين في الفقه ومرجعا للفتوى بالمغرب.

= وأبو العبّاس أحمد بن محمّد بن بكر، وإسماعيل بن بيدير وصنادي بن محمّد السدراتي، نقلا عن هامش **كتاب النيل**، ج3، ص1080 تحقيق الشيخ عبد الرحمن بكلّي.

(1) **تاريخ بني مزاب** للحاج سعيد يوسف، ص83 بتصرّف. نقلا عن مقدّمة **كتاب النيل**، تحقيق: الشيخ عبد الرحمان بكلي، ج1، ص7.

قال عنه شيخه السابق: «إذا كنت أعقل وأتفرّس فإنّ هذا الفتى يحيي دين الله»[1].

وقال عنه الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر فيما يروي الدرجيني في **الطبقات** «كان في حياته بيت العلم يفيد به كلّ طالب وكلّ ذي حاجة، ولمّا دنت وفاته أودع علومه الكتب»[2].

وقال عنه الشيخ أبو اليقظان «أبو العبّاس أحمد أعظم في العلم والمعرفة وإنتاج القلم» (يقصد بالضمير أبناء الشيخ أبي عبد الله).

ألّف حوالي 25 كتابا من أشهرها **كتاب القسمة وأصول الأرضين**[3]، و**السيرة في الدماء، وتبيين أفعال العباد**، وكتابه **جامع أبي العبّاس** في الفروع المعروف بـ**أبي مسألة**، وصِنوه **كتاب الألواح**.

قضى معظم حياته بأجلو[4] معلّما ومؤلّفا، وبها تجلّت شهرته إلى أن لقي ربّه في ذي الحجّة 504هـ/ جوان 1111م، ودفن بجوار روضة والِده المشهور في المنطقة باسم سيدي محمّد السائح. ومن شاء المزيد من التعرّف على شخصيّته ومكانته العلميّة وآثاره فليرجع إلى **كتاب طبقات** الدرجيني و**سير الشمّاخي** وتقديم **كتاب القسمة وأصول الأرضين** للدكتور محمّد ناصر.

ج) ما هو كتاب **أبي مسألة** ؟

يقول المؤلّف في تقديمه للكتاب «أمّا بعد -أرشدك الله لدينه وأمدّك بعونه وتمكينه- فإنّك كتبت إلينا كتابا فذكرت فيه أن أشرح لك بعضا من أصول مجمل الفتيا ممّا يتأتّى لنا علمه ويتيسّر لنا جمعه...فجمعت لك جوابات ممّا تيسّر لي تلخيصه وذهبت فيه إلى الاختصار في الخطاب والاقتصاد في الإطناب وعدلت عن التطويل والإسهاب ليَخفّ ذلك على طالبه، ويسهل على فهم راغبه لعلمنا بمرادك وحرصك في التقليل مستغنيا به عن التطويل...الخ»[5].

---

(1) **الوسياني**، ج2، ص: 84. مقدّمة **القسمة وأصول الأرضين** نقلا عنه، ص: 27.

(2) **الطبقات**، ج2، ص443.

(3) نشر جمعيّة التراث بالقرارة، بتحقيق الدكتور محمّد ناصر والشيخ بكير بن محمّد الشيخ بالحاج.

(4) تُعرف الآن باسم بلدة عمر قرب تقورت.

(5) **كتاب أبي مسألة**، ص7-8.

يقول الشيخ أبو العبّاس أحمد الدرجيني في **الطبقات**: «وعن أبي محمد أنّ سبب تأليف أبي العبّاس كتابه الذي تسمّيه العزّابة **أبا مسألة** أنّ أبا عبد الله محمّد النفوسي كتب إليه من ابيدلان يرغب إليه في مختصر مشتمل على مسائل في الفروع فتدبّر كيف يضع هذا التأليف فنام فرأى في منامه قائلا يقول له: «اذكر أبا مسألة»، فجعله في جزأين فسمّاه العزّابة **أبا مسألة**. وأمّا أبو محمّد فكان يسمّيه **جامع الشيخ أبي العبّاس**»[1].

كما أشار في الطبقات إلى أنّ المؤلّف «عرض جميع ما صنّف غير كتاب واحد تركه في الألواح -أي مسودّة، ولعلّه الكتاب المعروف بهذا الاسم- على المشايخ الذين أجازوها، ثمّ عرض ابنه من بعده **كتاب الألواح** على المشايخ وهم إسماعيل وحمّو بن المعزّ وأيّوب بن إسماعيل وداود بن واسلان، وأبو سليمان الزواغي»[2].

وإذا كانت تسميّة الكتاب ترجع إلى عبارة الرؤيا التي أوردها الدرجيني، فلعلّها في الأصل كانت باللفظ البربري «بابَ ان لمسالت» أي صاحب المسألة فعلى هذا الأساس يناسب أن يكون **كتاب أبا مسألة** على الحكاية، وربّما ترجع التسميّة إلى عنونة فصول أبوابه بـ(مسألة) فحينئذ يكنّى الكتاب بـ**أبي مسألة**. والكتاب يقع في جزأين:

- يشتمل الأوّل على:

الصلاة ووظائفها، الصوم وأحكامه، الزكاة، الوصيّة، البيوع.

- ويشتمل الثاني على:

السَّلَم، القرض، الرهن، القراض، نفقة الأولياء، النكاح، الطلاق. ويلاحظ من هذا التبويب والقضايا المعروضة أنّه اقتصر على مسائل ممّا يرد الاستفسار عنه في الشؤون العامّة. وقد يكون بناء على طلب مقترح التأليف، لذلك اعتمد تبسيط عباراته مراعاة لإفهام العامّة. وإذا تصفّحنا الباب الأوّل كعيّنة لدراسة المنهجيّة تبيّن لنا أنّه يكتفي بإيراد أقوال ممّا شاعت الفتوى به أو ترِد على لسان المشايخ ترخيصا، وإن لم يشر أحيانا إلى ذلك. وهذا ما تعقّبه الشيخ الثميني في **المصباح**. فذكر في

(1) **الطبقات**، ج2، ص444، وانظر الشمّاخي: سير، ص423.

(2) **الطبقات**، ص445.

موضوع اشتراك صلوات اليوم كلّها في الوقت أنّه (مطروح) أي من متروك العلم. كما أنّه يقتصـــر على سرد الأقوال في المسألة الواحدة دون عزوٍ لقائل أو ترجيح لرأي إلاّ نادرا كما أشار إلى القـــول باشتراك الظهر والعصر. كاشتراك المغرب والعِشاء في الوقت، فأفاد أنّه الرأي المعتمد في المذهـــب[1]، كما أفاد الشيخ أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي (عاش في القرن7هـ) أنّه الرأي الأوسط في قوله:

فكـــلّ صلاة وقتـــها حاصل لهـــا ... وشـــدّد في ذا قائلـــون علـــى إصر

وأحوط ما قد قيـــل فيها اشتراكها ... نهـــارا وليلا فاطـــرح ذا على حجر

وأوسطها فالظهر والعصر شركـــة ... كذاك صلاة الليـــل وقت لها يسري

أمّا صلاة الصبح فالشمس حدّهـــا ... فإنْ طلعت حقّـــت عليه عُرَا الكفر[2]

ولا يتوسّع في الاستدلال ممّا يوحي بتجنّب الخوض في المســـائل الخلافيـــة علـــى مســـتوى المستفيدين الشعبيّين. ولا يخلو عَرضه للمسائل من الإشارة أحيانا إلى الدليل الأصولي، كما نـــرى في موضوع قصر الصلاة[3]، والتيمّم[4]. ولا يعني ذلك أنّه لا يعنى بتوضيح عبارة شائعة. كما نـــرى في تفسيره للمراد من قولهم السهو لا يفسد الصلاة[5]، أو يورد حديثا كمستند للفتوى تلميحا كمـــا في قوله: «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلّها حيث تذكّرها فذلك وقتها.»[6] فهو تلميح إلى الحديـــث الوارد في ذلك أو ينقل الحديث ليستشهد به دون التعرّض لسنده أو مصدر تخريجه أو منزلتـــه عنـــد الرواة، مثل «لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب»[7]. وهذا هو الأسلوب السائد عموما في تقـــديم الأقـــوال الفقهية ثقة بأهل العلم على حـــدّ قولهم «من قلّد عالِما لقي الله سالما» لأنّه لم يـــؤلّف للـــباحثين

(1)

(2) **ديوان الشيخ أبي نصر**، ط2، ص12.

(3) ص10.

(4) ص40.

(5) ص18.

(6) ص45.

(7) ص29، وأخرجه بعبارة: «كلّ صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج».

والدارسين من ذوي الاختصاص. ومن هنا آلت تسميّته بـ**جامع أبي العبّاس** عند مَن يطلق عليه ذلك. وقد يبلغ به التبسيط إلى حدّ التسامح في أداء لفظ كما شاهدنا في استعمال حيث بدّل متى ذكرها. وقد ينشأ ذلك عن ترجمته من الاستعمال البربري كما في قوله: «ومن صلّى بقوم وهو جنب أو صلّى بهم على غير وضوء أو بثوب نجس ولم يعلم ثمّ علم فليخبرهم، وينصتون أيضا إليه»[1]. يريد ويستجيبون له..يقتدي به[2] يريد: يصدّقه.

كما نلاحظ في الفصول التي يطلق عليها اسم المسائل أنّه لا يعنونها، ولا يراعي في جمعها ترتيبا موضوعيا، كما نرى في مسائل باب الصلاة ووظائفها أنّها أتت كما يلي:

مدخل، التوقيت، التقصير، تصرّفات المضطرّ، حكم تاركها، الإعاقة، الاقتداء، حدوث مفسد للصلاة، الإخلال ببعض شطورها، ملامسة النجس، طروء جديد على إصلاح الصلاة، أثر الإمام في المأموم، أثر النيّة في التصرّف، لا يُصلّى عند الطلوع، الاستدراك، الاستخلاف، الاستقبال، المرور بين يدي المصلّي، دفع الضرر، أماكن الصلاة، أثواب الصلاة، قعود الصلاة، القيام في الصلاة، القراءة في الصلاة، الإمامة، حملها للقراءة الإنصات، الأفضلية فيها، لا تنعقد للفرد صلاة مع جماعة، أنسب مكان في المسجد، صلاة الرجل خلف نساء، الوهم في الصلاة، التشهّد، حكم صلاة الميّت، (استطراد)، التسليم، الاستعانة بالغير، القِران، الوطن، الآذان، التطهّر، التيمّم، التصرّف مع نجس، التصرّف لإصلاح الصلاة، التصرّف سهوا، العوارض مثل السعال، النوم، نسيان الصلاة (استطراد) تركها عمدا، الإمام إذا صلّى جنبا، الالتزام بالنافلة إذا شرع فيها، صلاة العيد، سجدة التلاوة.

وإذا تصفّحنا **كتاب المصباح المقتبس من كتاب أبي مسألة والألواح** نلاحظ:

أ) – في التقديم:

1. الإشادة بالكتابين ومؤلّفهما إذ يقول: «وبعد فإنّي طالما كنت مؤمّلا لاختصار الكتابين المشهورين المنسوبين للإمام أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن بكر، رضي الله عنهما ونفعنا ببركتهما، وهما **كتاب أبي مسألة** و**كتاب الألواح** اللذين هما من أعظم مصنّفات المذهب

(1) ص29.

(2) ص

من علماء المغرب جمعا للمهمّات، وتقريبا للأفهام عند مسيس الحاجة. وهما قابلان للاختصار لِما فيهما من التطويل وبعض التعقيد...إلى أن يقول: أفرغتهما في قالب الإيجاز غير المخلّ...»الخ.

2. الاستياء من حالة العصر وما فيه من تدهور المجتمع، والامتعاض من تصرّف الظلمة والشكوى إلى الله «من قوم إذا أساءوا أصرّوا على إساءتهم، وإن أحسنوا ندموا على إحسانهم من ساعتهم»، ثمّ روى حديثا عن رسول الله ﷺ يفيد «إنّ من أشراط الساعة: أنّ الله سبحانه وتعالى يوقع بينهم الفتنة، فيقتل بعضهم بعضا، ويسيء بعضهم إلى بعض، فينتقم الله من الكلّ»[1].

وفي استعراضنا للباب الأوّل نجد:

1. الاحتفاظ بنفس المحتوى تقريبا وأسلوب العرض لكنّه قد يدمج بعض المسائل في باب و لم تكن كذلك في الأصل.
2. التخفيف من بعض العبارات، غير أنّ بعضها ينقلها حرفيا حفاظا على هدف الفكرة، كما نشاهد في موضوع أثر النية في العمل.
3. تحويل المسائل إلى أبواب وفصول. ولا أدري ما الذي اقتضاه أن يجعله بابا أو فصلا، والمفروض أن يضع المسائل ذات الوحدة الإطارية في باب مثل باب الإمامة، ويضع فرعيات الموضوع فصولا، مثل الإنصات، الاستدراك، الاستخلاف، رفع الوهم، تنبيه الإمام، الأولويّة في الإمامة ...الخ، ولكن لم يلتزم ذلك.
4. اختفاء لفظة «ومنهم من يقول» التي نراها كلازمة في عبارات الأصل، والاقتصار على كلمة «وقيل».

وللمقارنة يمكن أن نتصفّح هذه العيّنات الأربع:

أوّلا: أثر النية في العمل.

يقول الشيخ أبو العبّاس: «مسألة. وإذا أحرم الرجل صلاته على أنّ الثوب الذي يصلّي به

---

(1) **المصباح**، نسخة خطّية مصوّرة، ص3.

طاهر فإذا هو نجس فعلم ذلك في الوقت أو بعده و لم يجد غيره فإنّه يعيد صلاته. ومنهم من يقـول: إن لم يعلم به إلاّ بعد خروج الوقت فلا إعادة عليه. ومنهم من يقول: لا إعادة عليه إن لم يجـد غـيره، سواء علم ذلك في الوقت أو بعده. وإن تعمّد فصلّى بالثوب النجس على أنّه وجد ثوبا طاهرا فـإذا الثوب الطاهر الذي ظنّ أنّه موجود لم يكن فإنّه يعيد صلاته من أجل سوء نيته سـواء في الوقت أو بعده. ومنهم من يقول: لا إعادة عليه ولكن يتوب إلى الله من سوء نيته، وكذلك المكان على هذا الحال. وكذلك إن تيمّم على أنّه وجد الماء فإذا هو معدوم ثمّ علم ذلك في الوقت أو بعده فإنّه يعيد صلاته بالتيمّم، ومنهم من يرخّص. وكذلك من صلّى بالتيمّم على أنّه صحيح فإذا هو معذور فيما بينه وبين الله تعالى فلا إعادة عليه. ومنهم من يقول: يعيد بسوء نيته. وأمّا إن صلّى بالتيمّم خوفا من مضرّة فإذا هو لم يضره الماء فيما بينه وبين الله فإنّـه يعذر في ذلك ولا يكلّف في ذلك ما عند الله. وأمّا إن غسل بالماء على أنّه يضرّه في بدنه فإذا هـو لم يضره، قال بئس ما فعل، فإن ضرّه الماء حتّى حلّت به آفة فقد عصى الله ربّه وصلاته تامّة، وأمّـا إن علم أنّ الماء يضرّه ولكنّه طمع أن لا يضرّه في هذا الوقت فغسل به فضرّه فليس عليه شيء»[1].

نستمع إلى الشيخ الثميني في **المصباح** «...وإذا أحرم الرجل على أنّ ثوبه طاهر فإذا هو نجس فعلم في الوقت أو بعده ولم يجد غيره أعاد صلاته، وقيل لا إن لم يعلم به إلاّ بعد خروج الوقت، وقيل لا إن لم يجد غيره ولو علم ذلك في الوقت. وإن تعمّد فصلّى بثوب نجس على أنّه وجد طاهرا فإذا الطاهر الذي ظنّه موجودا لم يكن أعادها لسوء نيته وإن بعد الوقت. وكذا المكان وقيـل لا، ويتوب إلى الله لنيته. وكذا في المكان. وكذا إن تيمّم على وجود الماء فإذا هو معـدوم ثمّ علم ذلك فإنّه يعيدها بالتيمّم، ورخّص في عدم الإعادة، وكذا إن صلّى به على أنّه صحيـح فإذا هو معذور فإنّه لا يعيدها، وقيل يعيدها لسوء نيته. وإن صلّى به خوفا من الماء فإذ هـو لا يضرّه فلا يعذر ولا تكلّف في ذلك ما عند الله. وإن اغتسل بالماء على أنّه يضرّه فلـم يضـره فبئس ما فعل، وإن ضرّه فعطب فقد عصى ربّه وجازت صلاته. وإن كان يضرّه وطمع أن لا يضـرّه في الوقت فغسل فضرّه فلا عليه...»الخ[2].

(1) **أبو مسألة**، ص21، 22.

(2) **المصباح**، ص8، مخطوط.

يلاحظ أنّ الشيخ الثميني احتفظ بنفس معروضات الفتوى مع تقليص العبارة فقط وذلك للتأكيد على مدى أهمّيّة نوايا الشخص في مجال العبادة. وهل المكلّف مطالب بالإجراءات العمليّة في الأداء لإبراء الذمّة أم أنّ عليه لاستجلاب القبول أن يحرص على تقوى القلب. وهو ما يرى الشيخان أنّه يوافق الأصول، وأنّ الرأي الأوّل رخصة -أي يخالف الدليل بسهولة-.

ثمّ نستمع إلى الشيخين في موضوع القعود غير المسموح به في الصلاة:

يقول الشيخ أبو العبّاس: «مسألة. والقعود كلّه لا يفسد الصلاة ما خلا القعود الحبشي وهو أن يقعد الرجُل بأليتيه على عقبيه فيما بين السجدتين أو في التشهّد، وقال بعضهم أن يقعد الرجل على أليتيه في الأرض وينصب ساقيه على الأرض كإقعاء الكلب وعقب الشيطان الذي ورد فيه النهي عن النبيء ﷺ وهو الذي ذكرناه أيضا من قعود الرجل بأليتيه على عقبيه في الصلاة، وما سوى هذا كلّه من القعود فلا يفسد الصلاة.»[1]

ويقول الشيخ الثميني: «فصل. لا يفسدها قعود سوى قعود الحبشة وتربيع الملوك، ونُهي فيه عن الإقعاء أيضا وهو أن يقعد المصلّي على عقبيه فيما بين السجدتين أو التشهّد، وقيل أن يقعد على أليتيه وينصب ساقيه كإقعاء الكلب، وعن عقب الشيطان وهو ما مرّ من قعوده على أليتيه بعقبيه. وما سوى ذلك من القعود لا يفسدها»[2].

وتعديل الشيخ لعبارة الأصل لا يخفى، ويلاحظ أنّه لم يشرح أنّ قعود الحبشة هو نفسه عقب الشيطان كما في **النيل** لنفس المؤلّف، واستدرك بتربيع الملوك. ولم يشر المؤلّفان إلى جلوس القرفصاء وأشهر ما فسّر به كما في **النيل**: قعود المحتبي بيديه على ساقيه. وأضاف القطب في **شرحه للنيل** «وقيل الجلوس على الركبتين باتّكاء وإلصاق بطنه بفخذيه وتأبّط كفّيه»[3]، فالجلوس غير الشرعي في الصلاة أربعة:

تربيع الملوك، القرفصاء، عقب الشيطان، الإقعاء.

---

(1) **أبو مسألة**، ص28.

(2) **المصباح**، ص10.

(3) ج5، ص11.

ونستمع إلى الشيخ أبي العبّاس وهو يتناول العلاقة بين الإمام والمأموم فيقول: «مسألة. والإنصات إلى قراءة الإمام واجب إذا فرغ من قراءة الحمد، ويستحبّ له أن يستمع إلى إمامه ولو أنّه لا يسمعها بالبعد عنه أو بآفة حلّت به، ولكنّه يستعمل ذلك ابتغاء الأجر من الله، وإن أتبعه في قراءة غير فاتحة الكتاب و لم يرد بذلك التعليم فلا بأس، وإن أراد بذلك التعليم أعاد صلاته، ولا يرفع المأموم صوته فوق صوت إمامه لا في التكبير ولا في القراءة، وليحذر أن يحيّر من يصلّي معه في رفع صوته بالقراءة. وأمّا التكبير فلا يحذر فيه أصحابه، ولكن يحذر أن يفوت به الإمام ويتبع إمامه في قراءة الحمد لله ربّ العالمين حرفا بحرف، وإن سبقه إمامه لاهيا في قراءته فلا بأس. مسألة: وإذا أراد الإمام أن يصلّي بقوم فإنّه ينتظرهم حتّى يتهيّأوا لإحرامهم ويستقبلوا ويسوّوا صفوفهم ثمّ يكبّر. ولا يأخذوا في التكبير حتّى يتمّ الإمام تكبيره، ويقف على الراء فيبدأون في تكبيرهم، وإذا أتمّوا تكبيرهم أخذوا في القراءة، فمن سبق منهم الإمام في ابتداء تكبيره أو بخاتمته أعاد إحرامه. ومن اصطحب معه في التكبير ففيه قولان، وكذلك في ركوعه وسجوده وقيامه وتسليمه، وإن سبق إمامه في شيء من ذلك أعاد صلاته، وإن أتى معه في هذا كلّه فلا يفعل فإنّ فعل فلا إعادة عليه. وأمّا القراءة والتعظيم في الركوع والسجود والتحيّات فلا بأس عليه. وإن سبق الإمام في هذا، وإن كان يُستحَبّ أن لا يسبق إمامه في شيء من صلاته وفي جميع ما يمكنه ذلك ويصل إليه. وقد قيل فيمن سبق الإمام إنّه لا صلاة له، ومن اصطحب معه فليس له فضل الجماعة، ومن أتبعه فذلك الذي له خمسة وعشرون ضعفا من الأجر»[1].

ونستمع إلى تلخيصه من الشيخ الثميني «والإنصات لقراءة الإمام واجب إذا فرغ المأموم من الفاتحة، ويستحبّ له أن يستمع إليه وإن كان لا يسمعه بالبعد عنه أو بآفة حلّت به لكنّه يستعمله ابتغاء ما عند الله تعالى، وإن أتبعه في قراءة الفاتحة و لم يرد بذلك تعلّما لم يضرّه، وإن أراد أعادها، وليحذر أن يحيّر من معه فيها برفع صوته بالقراءة، وأمّا التكبير فلا يحذر فيه أصحابه ولكن الإمام، ويتبعه في قراءة الفاتحة حرفا بحرف، ولا بأس عليه إن سبقه أو ساواه.

باب..إذا أراد الإمام أن يصلّي بقوم فإنّه ينتظر بهم حتّى يتهيّأوا لإحرامهم ويستقبلوا ويسوّوا صفوفهم ثمّ يكبّر، ولا يبدأون في تكبيرهم حتّى يفرغ من تكبيره، ويقف على الراء فإذا أتمّوا تكبيرهم أخذ هو في القراءة، فمن سبقه بابتداء تكبيره أو بخاتمته أعاد إحرامه، وفيمن صاحبه فيه قولان، وكذا

(1) **أبو مسألة**، ص3.

في ركوعه وسجوده وقيامه وقعوده وتسليمه فإن سبقه بشيء من ذلك أعاد صلاته ولا يصاحبه فيه فإن فعل لم يضرّه، أمّا القراءة والتعظيم والتسبيح والتسليم والتحيّات فلا بأس عليه أيضا. وإن كان يستحبّ له أن لا يسبقه بشيء فيها ممّا أمكنه. وقد قيل: لا صلاة لمن سبقه ولا فضل الجماعة لمن اصطحب معه. ومن تبعه فذلك الذي له خمسة وعشرون ضعفا من الأجر»[1].

هنا يبدو تهذيب الشيخ الثميني بعبارة **أبي مسألة** واضحا حتّى في التبويب وتعديله لبعض العبارات مثل: «حتّى أخذ هو في القراءة...»، «ولم يرد بذلك تعلّما»، وحذف عبارة «أن يفوت به» والاستغناء عن فقرة «ولا يرفع المأموم صوته فوق صوت إمامه لا في التكبير ولا في القراءة». ويبدو أنّ إدراج السبق بالتسليم ضمن ما يسمح به سهو من الشيخ أو تلاعب من النسّاخ.

من فاتته صلاة بنسيان أو نوم فعليه أن يعيدها عند تذكّره أو تيقّظه فذلك وقتها -كما في الحديث- فهل يعني ذلك أنّه وقت أداء أو قضاء (بحث أصولي).

نستمع إلى الشيخين في الموضوع:

قال الشيخ أبو العبّاس: «مسألة. ومن نسي صلاة أو نام عنها فليصلّها حيث تذكّرها فذلك وقتها. واختلفوا في معنى قوله فذلك وقتها، فمنهم من يقول: ذلك وقت إعادتها، ومنهم من يقول: ذلك وقت فرضها، فإن تركها بعدما ذكرها أو بعد ما انتبه من نومه مقدار ما يصلّها فيه فقد هلك. ومنهم من يقول: وقتها مع وقت صلاة ذكرها فيه أو وقت انتبه فيه من منامه إن كان ذلك في غير وقت صلاة، فإن كان في وقت صلاة فعلى ما ذكرنا. ومنهم من يقول: هي ديْن عليه مثل الصلوات التي خرجت أوقاتها كلّها. إنّما عليه إعادتها وقت ما تيسّر له ما لم يمت أو تركها عامدا حتّى خرج وقتها من غير عذر فقد هلك، ولا يهلك بتركها مرّتين.»[2]

وقال الشيخ الثميني: «باب. من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها فذلك وقتها، فقيل معناه وقت إعادتها، وقيل وقت فرضها فإذا تركها بعدما ذكرها أو بعد انتباهه من نومه مقدار ما يصلّيها فقد هلك، وقيل وقتها مع وقت صلاةٍ ذكرها فيه أو انتبه فيه إن كان ذلك في غير وقت

---

(1) **المصباح**، ص10.

(2) **أبو مسألة**، ص45.

الصلاة. وإن كان فيه فعلى ما ذكر. وقيل هي ديْن عليه كالخارجة أوقاتها له إعادتها في أيّ وقت تيسّر له ما لم يمت. وإن تعمّد تركها حتّى خرج وقتها من غير عذر فقد هلك.»[1]

فدور الشيخ هنا اقتصر على تقليص العبارة فقط.

ولا أريد أن أفارق الحديث عن **أبي مسألة** قبل أن أشير إلى قضية أباحها الشيخ أبو العبّاس، وهي قضية زواج المتعة، قال رحمه الله في **كتاب أبي مسألة**: «مسألة. ويجوز نكاح المتعة بين الرجال والنساء مثل غيره من النكاح، ولا فرق بينهم إلاّ في الأجل والزيادة فيه بعد تمامه والصداق ونزوع الأجل فثبتا على نكاحهما. وقيل إنّ عمر بن الخطّاب ﷺ نهى عنه»[2].

وتابعه عليها الشيخ الثميني في **المصباح** مقتصرا على التلخيص دون تعليق. وثار حولها الجدل حين نشر **كتاب أبي مسألة** سنة 1984م، وهاجم المتشدّدون القضية وكبّر غيرهم أن تُنسب إلى إباضي هذه الفتوى، وأحسّ بعضُ أصحابنا بالاستخذاء حتّى الذين قاموا بتحقيق كتاب من كتب الشيخ فيما بعد تمنّوا في استحياء لو أنّ الناشريْن لكتاب أبي مسألة تعرّضا لبعض ما في الكتاب من آراء لا تمثّل وجهة نظر الإباضية. والحقّ أنّه -وإن لم يكن الرأي الوحيد في المذهب- قول موجود فيه وناهيك بمكانة الشيخ أبي العبّاس العلميّة، وهو في كتابه قد اقتصر على هذا القول، فهل كان على خطأ.

يجب التفرقة بين مفهومين لزواج المتعة:

أحدهما: هو الذي يجري فيه العقد على تعبير (تمتّع أو استمتع)[3] وهو الذي كان سائدا في الجاهلية وأوّل صدر الإسلام، ثمّ وردت أحاديث تمنعه، منها حديث خيبر المروي عن الإمام عليّ «نهى رسول الله عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية» رواه البخاري وأحمد[4]. وتعدّدت الروايات بتوقيت تحريمه: يوم الفتح، تبوك، حجّة الوداع، عمرة القضاء، عام أوطاس، حتّى نسب إلى الإمام الشافعي قوله « لم أر شيئا أحلّ ثمّ حرّم، ثمّ أحلّ ثمّ حرّم غير نكاح المتعة»[5].

---

(1) **المصباح**، ص16.

(2) **أبو مسألة**، ص56.

(3) سلسلة بحوث اجتماعية لرضى كحالة، ج2، ص61. انظر **الفقه الإسلامي وأدلّته** للزحيلي، ج7، ص117.

(4) **شرح النيل** للقطب، ج6، ص318.

(5) راجع **شرح النيل**، 318/6، و**هامش التعامل في الإسلام** عبد الوهّاب السماوي، ص23، (ام) **هامش فقه السنّة** للسيّد سابق، ج2، ص42.

إذ هذا النوع من النكاح لا إرث فيه ولا طلاق. ورأى الأكثرون أنّه منسوخ بآيــة الإرث أو بالنهي كما يقول الشيخ عبد العزيز في **النيل**[1]. وروى السيّد سابق اتّفاق أئمّة المذاهب على تحريمـه وعلّل ذلك بأشياء منها كون هذا العقد لا تتعلّق به الأحكام الواردة في القرآن بصدد الزواج[2].

هذا النوع من الاتّصال الجنسي أشبه شيء باتّخاذ الخدن لمدّة محدّدة، ولا يسمّى زواجا إلاّ مجــازا. وربّما تسومح فيه في بداية الإسلام كمرحلة تدريجيّة في التحريم على غرار ما ورد في تحريم الخمر.

ثانيهما: الزواج المؤقّت[3]، أي زواج بكلّ أركانه:

من وليّ وشهود ورضاها ونفال، وهو إذن زواج ونسب إلى المتعة مجازا لاعتبار كونه مؤقّتــا، دعا إليه الشبق الجنسي. والظاهر أنّ هذا هو الذي أجازه ابن عبّاس وغيره من الصحابـــة والتـابعين وأبو العبّاس أحمد[4] وزفر من الحنفية الذي اعتبر شرط التوقيت شرطا باطلا مع صحّة الـــزواج[5]، والشيعة الذين رسموا له قيودا تقنينيّة. ويُعبّر اليوم عنه بزواج المسار الذي تحدّث عن إباحتــه الشيخ القرضاوي في إحدى حصص «الشريعة والحياة» من الجزيرة: الإذاعة المرئية من دولة قطر. وكـــانت حُجّته في مناقشة المتدخّلين في غاية الإقناع، وهو الذي عناه ابن عبّاس بقوله: «لو ساعدني عمر فيــه ما جلد في الزنا إلاّ شقيّ»[6]. فهذا النوع لم يرد فيه نصّ بتحريمه ولكنّ عمر منعه سدّا للذريعة. وهو الذي روي فيه عطاء عن جابر بن عبد الله «تمتّعنا على عهد رسول الله وأبي بكر ونصف من خلافــة عمر ثمّ نهى عنها»[7] إذ لو ثبت النهي صريحا عن النبيء في هذا ما وسع أحدا من الصحابة أو غــيرهم أن يجيزه للضرورة أو لغيرها.

---

(1) متن **النيل** للشيخ الثميني، ج2، ص358. وانظر **شرحه** للقطب اطفيش، ج6، ص318.

(2) راجع السيّد سابق، نفس الصفحة.

(3)

(4) انظر **شرح النيل**، نفس الصفحة.

(5) انظر الزحيلي، ج6، ص520.

(6) **شرح النيل**، ص319.

(7) نفس المصدر والصفحة.

والغريب من ابن حزم على ما عُرف به من سعة الأفق العلمي ودقّة التحقيق أن يقول: «لا يجوز نكاح المتعة، وهو النكاح إلى أجل، وكان حلالا على عهد رسول الله ثمّ نسخه الله على لسان رسوله نسخا باتا إلى يوم القيامة، وقد ثبت على تحليلها بعد رسول الله جماعة من السلف...الخ»[1].

وما نُسب لابن عبّاس من اعتذار هو أقرب إلى النكت الأدبية منه إلى الفتوى الجدّية. قال الخطابي: إنّ سعيد بن جبير قال: قلت لابن عبّاس هل تدري ما صنعت وبِم أفتيت؟ قد سارت بفتياك الركبان وقالت فيه الشعراء. قال: وما قالوا؟ قلت: قالوا:

قد قلت للشيخ لمّا طال محبسه   يا صاح هل لك في فتيا ابن عبّاس

هل لك في رخصة الأطراف آنسة   تكون مثواك حتّى رجعة الناس؟

فقال ابن عبّاس: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والله ما بهذا أفتيت ولا هذا أردت ولا أحللت إلاّ مثل ما أحلّ الله الميتة والدم ولحم الخنزير وما تحلّ إلاّ للمضطر![2] والبيتان رواهما صاحب التحرير هكذا:

قد قلت للركب إذا طال الثواء بنا   يا صاح هل لك في فتوى ابن عبّاس

في بضّة رخصة الأطراف ناعمةٍ   تكون مثواك حتّى مرجع الناس

وقد أورد ابن حزم طائفة ممّن أباحوه من الصحابة: أسماء بنت أبي بكر وجابر بن عبد الله وابن مسعود وابن عبّاس ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن حُريث وأبو سعيد الخدري وسلمة ومعبد ابنا أميّة بن خلف. واختلف في إباحتها عن عبد الله بن الزبير ومن التابعين طاوس وعطاء وسعيد بن جبير وسائر فقهاء مكّة[3].

وخلط الناس بين هذين النوعين: نكاح المتعة، والزواج المؤقّت هو الذي أثار هذه الضجّة. فالزواج المؤقّت إذن لم يرد فيه نصّ، وإنّما هو رأي اجتهادي يذهب من يقول فيه بالتحريم إلى أنّه يتعارض مع الهدف الذي شرع الزواج من أجله وهو استقرار البيت العائلي. وهذا صحيح لكن ربّما

(1) **المحلّى** لابن حزم، ص519.

(2) **فقه السنّة** للسيّد سابق، ج2، ص43.

(3) **المحلّى**، ج9، ص520.

تدعو ظروف خاصّة إلى استخدام هذا الأسلوب من النكاح المؤقّت، فهو زواج مشروع لا يمكن أن يقارن بالزنا إذ ثبت فيه كلّ الحقوق الزوجية أثناء الفترة المشروطة القابلة للتمديد كما يصرّح الفقهاء بذلك.

ولا أدري ما وجه إقحام آية ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[1]، قالوا إنّها حُجّة الشيعة في إباحة هذا الزواج حتّى نسب إليهم أنّهم اعتمدوا قراءة من يدرج فيها -إلى أجل مسمّى- وهي قراءة أُبيّ وابن عبّاس وسعيد بن جبير وعبد الله بن مسعود[2]، فالآية لا علاقة لها بالموضوع إطلاقا، فهي امتداد للفقرة السابقة من الآية نفسها ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَآءَ ذَٰلِكُمُ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ لاسيما وقد صدرت بالفاء التفريعيّة، فهي في مجال إثبات حق المرأة الكامل حينما يتمّ الاستمتاع بها قصد الإحصان والتوصّل للعفّة، من غير سفاح (زنا) أي الدخول عليها حسب التعبير الشائع على حدّ نظيرها من سورة المائدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُومِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾[3] فهي بهذا المفهوم الواضح تأكيد لمضمون آية البقرة: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَّعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ الذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[4].

وبعد أن كتبت هذا رجعت إلى تفسير الآية ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ من سورة النساء في كتاب **تفسير التحرير والتنوير** للشيخ الطاهر بن عاشور -وهو مالكي المذهب كما تعلمون- فحمدت الله على توافق الرأي تقريبا. ورأيت أن أنقل عبارته في الموضوع حرفيا: قال الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور: «والذي يستخلص من مختلف الأخبار أنّ المتعة أذِنَ فيها رسول الله ﷺ مرّتين ونهى عنها مرّتين. والذي يفهم من ذلك أن ليس ذلك بنسخ مكرّر ولكنّه إناطة إباحتها بحال الاضطرار فاشتبه

(1) سورة النساء، الآية: 24.

(2) راجع **شرح النيل** وفيه أنّه نسبه لأهل الديوان، ج6، ص321؛ انظر **فقه السنّة**، ج2، ص45؛ راجع مادّة متع لسان العرب.

(3) سورة المائدة، الآية: 5.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

على الرواة تحقيق عذر الرخصة بأنّه نسخ وقد ثبت أنّ الناس استمتعوا في زمن أبي بكر وعمر، ثمّ نهى عنها عمر في آخر خلافته. والذي استخلصناه في حكم المتعة أنّه جائز عند الضرورة الداعية إلى تأجيل مدّة العصمة مثل الغربة في سفر أو غزو إذا لم تكن مع الرجل زوجُه، ويشترط فيه ما يشترط في النكاح من صَداق وإشهاد ووليّ حيث يشترط، وأنّها تبين منه عند انتهاء الأجل...إلى أن يقول: ونحن نرى أنّ هذه الآية بمعزل عن أن تكون نازلة في نكاح المتعة. وليس سياقها سامحا بذلك»[1].

والحمد لله ربّ العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بني يزقن 1999/06/19م



(1) **تفسير التحرير والتنوير** للشيخ محمّد الطاهر بن عاشور، ج5، ص11.

بسم الله الرحمن الرحيم

ملحق إضافي

إتماما للفائدة رأيت أن أذيّل المحاضرة بخلاصة عن **كتاب الألواح** أحد مرجعي **المصباح** تشتمل على :

- التعريف به.
- عرض موجز عن محتواه.
- منهج تلخيصه في **المصباح**.
- عيّنة نموذجية من الأصل (**الألواح**) والمقتبس (**المصباح**).

أ) التعريف بكتاب الألواح :

القسم المقتبس في **كتاب المصباح** للشيخ الثميني من **كتاب الألواح** للشيخ أبي العبّاس أحمد ابن محمّد بن بكر رحمهما الله يقع في النسخة المخطوطة في 36 صفحة من 68 إلى 104.

والكتاب كما يدلّ تسميته مسودة يتضمّن مسائل متفرّقة من أبواب الفقه لمّا يتمّ تنقيحها ففيها تكرار لكثير من العبارات وعودة إلى قضايا بعد انتهاء الحديث عنها، وتحتاج عدّة عبارات إلى تنقيح كما أنّ بعض ألفاظه يبدو أنّها مترجمة من استعمال بربري أو مصطلح عرفي وفيه استطرادات إلى مواضيع يمكن ضمّها إلى نظائرها بعنوان مدخل كلّ حديث بـ باب، وتدخل ضمن باب مسائل فرعية.

يستهلّ المؤلّف الكتاب بعد الثناء على الله والصلاة على رسوله بفضائله ومميّزات أمّته. وبالمناسبة ينتقل إلى ميزة رفع الخطأ والنسيان عن الأمّة ويتطرّق إلى تفسير الحديث وما الذي يرفع من الإثم والضمان ويمكن تجزئة الكتاب إلى قسمين:

الأوّل: أبواب فقهية تشمل على تفاصيل وهي على الترتيب:

الدماء والخطأ فيها وثبوت الضمان، وإثبات الدعاوي

باب الهبة : أنواعها والدعاوى فيها، ويشتمل على 8 أبواب ومسـائل والقـرض والعدالـة والوصيّة:

الثاني: مسائل متفرّقة ويبدو أنّها من فتاوى المؤلّف أكثرها مصدّر بعبارة: (سئل، فأجاب) قـد يكون المجيب هو أستاذه أبو الربيع. وقد يريد بذلك نفسه وربّما نبّه إلى ذلك حينما يذكر أنّ المسـألة وقع فيها تردّد أو إحجام فتولّى هو الردّ على السائل، وقد يستشهد بفتاوى مشايخ سـابقين مثـل الشيخ واسلان والشيخ سليمان بن يخلف والشيخ أبي خزر وغيرهم.

ب) عرض شامل لمحتوى كتاب الألواح للشيخ أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن بكر

(53 صفحة).

صحيفة

1 البداية ثناء على الله بحمده وصلاة وسلاما على رسوله وتحريض على الاقتداء بالصالحين

باب مناقب الرسول وبعض خصائصه ومنها الشفاعة

(استطراد) جواز الفخر إذا لم يقصد به الرياء

التخلّص إلى ذكر فضائل أمّة محمّد ﷺ ومنها رفع الخطأ والنسيان التعقيب على الحديث والتعرّض إلى ذكر ما يرفع عن المخطئ إلى ذكر الضمان وأنواعه: منه مـا هـو علـى المخطئ، ومنه على العاقلة، ومنه على بيت مال المسلمين، ومنه ما هو على الآمر لا علـى المنفّذ ومنه ساقط وذلك إذا صادف ما هو جائز له أم لا . . .الخ.

2 باب الخطأ في الدماء، قتل الخطأ أنواعه، أحكامها، الشهادة فيه شبه العمد.

3 مسألة: الحكم في الخطأ، على من يجب الضمان وتفاصيل ذلك

5 باب الإضرار بالجنين من طرف أمّه، من القابلة أو من أذنت له ومن عليه الضمان.

(استطراد) لمن يعطى تعويض الإضرار بالمشيمة.

(استطراد) إضرار الختان ومن تكلّفه السلطة أو الجماعة: الخطأ في ذلك على من؟

9	باب فيما تدفعه العاقلة من تعويض الجنايات ومدّة التقسيط ومن تلزمه المساهمة و وما قدرها وهل يجبرون على الأداء، ومن لا تعقل عنهم العاقلة وحكم من ليست له عاقلة أو عاقلته نساء أو أطفال أو فقراء.
11	باب الدعاوي في الخطأ: العدوان هو الأصل في إراقة الدماء حتّى يثبت العكس -صور فرعية في إثبات الدعوى أو نفيها- منها من وجد شخصا يسرق وادّعى الدلالة واستمسك به صاحب المترل وفتوى الشيخ سليمان بن يخلف في ذلك (يكلّف له الحاكم البيّنة: يكلّفه بـ...
12	مسألة في إثبات الدعوى وذكر أنّها على قسمين: دعوى مباشرة،
13	وغير مباشرة أي تحتاج لذكر السبب، أمثلة من صور الشهادة صحّة وإلغاء،
14	تناقض الشهادة مع الدعوى، إشارة الشيخ إلى تصحيح الفتوى (استطراد) ادّعاء الخلافة على صاحب الحقّ، قاعدة: جميع ما لا يجوز فيه إقرار الرجل لا يحلف إذا أنكره، كلّ دعوة من المدّعى عليه ضدّ المدّعي لا يلتفت إليها حتّى تقضى الأولى (أورد في ذلك حديث إلاّ إذا ادّعى الإبراء فإنّه يطالب بالبيّنة).
15	مسألة يثبت الحاكم الدعوى (يفتح الدعوى، للسابق من المتخاصمين أمثلة من رفض القاضي الدعوى أو قبولها، خليفة الطفل والمجنون والغائب كيف يخاصم باسمهم (يصيب الجحود، يصيبان الرجوع مترجمة)
17	(استطراد) بمن يحكم الحاكم (نوع الشهود) هل ترد اليمين الفاجرة، أحقّ أن تردّ بالبيّنة العادلة إذا أتى المدّعى بالبيّنة بعد أن حلف المنكر.
18	إذا كلّف المدّعي البيّنة لأجَل و لم يحضرها فيه، أخذ القاضي والشهود الهدية: متى يسمح به ومتى لا يجوز؟
19	باب من مسائل الخطأ، أنواع من التعدّيات وثبوت القصاص فيها، شهادة الوكيل والخليفة
21 / 22	فيما كانت لهم فيهم وكالة، وعلى الذي وكل عليه، حكم وليّ النكاح في ذلك.

37	(استطراد) عزل الوكيل بالخيانة إلاّ وكيل الوصية وأحكام تتعلّق بالتنفيذ
	(قعدت على أولادها) مترجمة امتنعت عن الزواج لأجلهم
38	رجوع الموصى عن الوصيّة مسموح به إلاّ الديون، والخلاف في العدالة العقود المؤجّلة لما بعد الموت ملغاة إلاّ الوصيّة، حكم الزكاة فيما أعطى عدالة
39	وحكم الغلّة فيما أعطي أصلا وتنفيذ العدالة في حياة الموصي، حكم العدالة لمن عليه دين، الحكم فيمن حدث من الأولاد بعد قسمة العدالة.
40	حكم ما تلف تماما بعد تعيينه هبة، والشهادة على ذلك
41	حكم الشرط في العقد، رجوع إلى الحكم الزكاة في غلّة الموهوب بعد وفاة الواهب،
	مسألة: الفارّ من الصدقة يؤدّي (حديث) معنى هذه العبارة وكيف تستخلص من الغلاّت التالفة.
42	تقديم دفع الزكاة قبل حلول الأجل.
43	(استطراد) متى تجب الصلاة بالنسبة لوقتها، متى يكفّر بتركها، حكم تركها عمدا، حكم أدائها في الأوقات المنهيّ عنها.
44	مواقيت الصلاة والاختلاف فيها.
	مسألة: كيفيّة استدراك مقيم دخل على مسافر.
	(استطراد) حكم من يأخذ التراب من طريق عام دون إذن، من وجد شيئا في مناخ القوم بعد رحيلهم، من وكّلت رجلا على تزويجها فزوّجها لمملوك أو معتوق، حكم تنفيذ الوصيّة من غير الوكيل.
45	من فادى امرأته ثلاثا هل له أن يتزوّجها، من راجع امرأته المطلّقة قبل المسّ، من تسرّى امرأة ولها صبيّ فأعطاه امرأته لتربيته فظنّته عبدا لها،
45	من قارض رجلا ماله، فسلمّه الربح ثمّ أخبره أنّه تعامل بالربا، الحيازة بين الزوجين، مريضة وهبت أرضا لبناتها في تبعات أموالهنّ ثمّ شفيت وأخذت تعمرها حتّى وفّت مدّة الحيازة، ثمّ ماتت.

عبد تزوّج بدون إذن مالكه ثمّ مسّ الزوجة، من مسّ امرأته المطلّقة قبل المراجعة، من تزوّج امرأة فسبقه إليها معتد هل ينكحها قبل أن تعتدّ وحكم الولد منها، حكم العبد المفقود عن زوجته أهو مثل الحرّ، حكم وليّ ردّ صداق وليّته لزوجها فداء، حكم من تعامل مع المحجور

47 عليه وهو لا يدري، حكم الوطء في الدبر، حكم من أعطى صدقة لرجل ثمّ ردّ له منها هل يقبله، حكم من يبيع الغزلان في سوق المسلمين، حكم من ادّعي عليه ديْن فأقرّ به وادّعى أنّه بُرِّئَ منه، من اشترى لحما فوجده مدودا هل هو عيب؟ من مثّل رجلا أو دابّة (يرد إصابة بعين) هل يضمنه..هل يأثم بذلك، رجل مدين أراد أن يتخلّص من الدين ويتزوّج فأعطى لأحد مالا تهرّبا من الدين هل يصحّ هذا الإصداق، حكم من أوصى وهو مدين هل للموصى له أن يأخذ، رجل كان يتاجر من مال فيه نصيب من امرأته ولم يشهد على ذلك فمات فأنكر الورثة أنّ القول قولهم، مسائل في الشفعة،

48 الطلوع والنزول في الحيض والنفاس، حبس المراهق في الجنايات، هل للقاضي وجماعة المسلمين إبطال بعض المعاملات دون بعض،

49 إحداث قصر (حصن) وسط قرية لتحصينها من عدو يجوز باتّفاق جماعة المترل وعليهم تعويض ما تعطّل من مصالح بعض الأفراد أو ضياع ممتلكاتهم، حكم المساهمة واستخلاصها والإجبار عليها،

(استطراد) حكم من أخذ أجره على بناء حائط مثلا ثمّ انهدم بعد تمامه.

49 حكم التسعير

50 من أعطى أحدا مبلغا من المال على المقارضة ثمّ ادّعى أنّه ضمن التلف أو أعطاه وديعة وادّعى تلفها، حكم يتيم أنكر حين رشده تصرّف وكيله لصالحه، ظهور عيب في سهم أحد المقتسمين لا يؤثّر في القسمة ويترادّون الغبن، حكم عقوبة المتّهم حتّى يقرّ.

51 ومتى يترتّب عليها ضمان، من أوهم الناس أنّه قتل شخصا لكونه طعن في الدين، والواقع أنّه انتقم لنفسه لخصومة بينهما هل عليهم أن يدفعوه للقود؟ هل يجب على الشعب أن يساعدوا الحاكم في القبض على هارب من تنفيذ الحكم عليه؟

حكم من التجأ إلى شخص لأنّه مطارد من عدوٍّ ودفع شيئا لأحد ليحتفظ له به ثمّ اشتبه بما عنده من أشياء هل يصدّقه في ادّعائه، من أفسد في بستان أو شجرة لشخص لا يعرفه فهل عليه أن يبحث عنه ويغرم التلف (فريضة) رجل يرث بالكلالة وبالأقرب: هالك ترك أخا شقيقا وأخا لأمّ وهو ابن عمّه يرث بالكلالة وبالتعصّب، مسائل فيمن مات وعليه ديون كيف تتمّ تصفيتها، رجل تنازل عن سهمه في التركة مخافة تباعة ترتّبت عليه من وصية أبيه، رجل بعث من دار الشرك أمانة لتبلغ لشخص و لم يذكر له أنّها لرهن عليه تبعة ذلك، هل على الإمام جبر من عليه صدقة أو جزية أن يدفعها؟ من طلب أن يجعل له سهم في ثواب (أخروي) ثمّ طلب تملّك السهم، رجل قال أعطيت لامرأتي مالي تنصّلا هل يغنيه ممّا عليه لها مثل الصداق؟ رجل ناول آخر وليّته فمشى إليها نكاحا أنّه ليس نكاحا شرعيا، مسائل تتعلّق بحقوق الميّت على من تجب من أوليائه وأزواجه؟

53- حكم قطّاع الطرق وتنجيتهم إذا تعرّضوا للخطر. اهـ

ج) منهج الشيخ الثميني في الاقتباس منه :

والشيخ في تلخيص الكتاب لم يغيّر من خطّة التأليف وإنّما اقتصر تنقيحه على تعديل بعض العبارات إيثارا للاختصار أو تعقيبا على فتوى وقد يساعدنا في الكشف عن مراد المؤلّف بالشيخ ومرجع الضمير كما أفادنا أنّه يعني به شيخه أبا الربيع سليمان بن يخلف في قوله من باب أنواع الخطأ «وغفل الشيخ -رحمه الله- يعني أبا الربيع أن يذكر المخالفة بينه وبين الأوّل، قال وبيان الأوّل أنّ الرامي رمى إلى عسكر له الرمي إليه أو إلى كلّ مباح له فوقعت رميته على ما لا يحلّ له قال فهذا من الخطأ المحض، أمّا الثاني فهو الذي يرمي ولا يدري ما نيته في رميه أهو محقّ فيه أم مبطل فوقعت رميته فيمن لم يقصده أو فيه وغيره فلا يشهد أنّه خطأ مثل الأوّل».

غير أنّه أي الشيخ الثمني في **المصباح** قد عدل عن مسائل ذكرت في **الألواح** ولعلّ ذلك اكتفاء لورودها في الكتاب الأوّل **أبي مسألة** مثل موضوع مواقيت الصلاة، كما أضاف مسائل تتعلّق بحقوق الميّت وما إلى ذلك أنهى بها الكتاب.

د) عيّنة نموذجيّة من تلخيص الشيخ :

1 – من كتاب الألواح : (ص3)

وإن ضربه بجميع ما لا يتوهّم منه القتل متعمّدا بالتعديّة فقام عنه القتل فإنّه يقتل به ومنهم من يقول يحطّ عنه القتل ويلزمه ضمان الديّة والإثم، وذلك مثل ليقة وشبهها، وأمّا كلّ ما يتوهّم منه القتل سواء استعمله الناس للقتل أو لم يستعملوه إذا ضرب به أحدا أو رمى به فقام عنه القتل فإنّه يقتل به ويلزمه الإثم. وأمّا ما لا يستعمل للقتل و لم يكن من عادة الناس أن يقصدوا به القتل فلا يقتل به ويلزمه الإثم والضمان وذلك مثل الضرب باليد أو بالرجل أو بالعصا وما أشبه ذلك والذي لا يتوهّم منه القتل هو العمد الذي يشبه الخطأ وأمّا الخطأ يشبه العمد فهو مثل جميع ما جوّزه العلماء الرمي إليه من الصيد بصفته فرماه فصادف في تلك الرمية إنسانا أو غيره ممّا لا يجوز له الرمي إليه على العلم له فقتله أو جرحه فالقتل والديّة محطوطان عنه والضمان له لازم، وقيل في هاتين المسألتين: خطأ يشبه العمد وعمد يشبه الخطأ أن يرجع فيهما إلى العاقلة الضمان، ومنهم من يقول إلى بيت مال المسلمين، وقيل فيهما غير ذلك والله أعلم.

2 – تلخيصه من كتاب المصباح : (ص70، 71)

ومن تعمّد ضربا بتعدية بما لا يتوهّم منه قتل فقام عنه فإنّه يقتل به وقيل يحطّ عنه وتلزمه الدية والإثم وذلك مثل ريشة وليقة ونحوهما وما يتوهّم منه القتل وإن لم يستعمل له إذا ضرب به أحدا أو رماه فقام عنه فإنّه يقتل به ويأثم. وما لم يستعمل لقتل و لم تجر العادة بقصد القتل به فلا يقتل به وتلزم به الديّة والإثم وذلك كالضرب باليد والرجل والعصا ونحو ذلك. وما لا يتوهّم منه قتل هو العمد الشبيه بالخطأ، والخطأ الشبيه بالعمد هو ما أجاز العلماء الرمي إليه من الصيد بصفته إن رمى إليه فصادف ما لا يجوز له الرمي إليه فقتله أو جرحه فالقتل والديّة محطوطان عنه، قال والضمان لازم أي على العاقلة، والله أعلم فليراجع. وقيل في العمد الشبيه بالخطأ وعكسه يلزم العاقلة ضمانه، وقيل بيت المال، وقيل فيهما غير ذلك.

القعدة أصل الإباضية

مروان القنواتي

بعد وقعة النهروان انشقّت جماعة من المحكّمة سمّوا القعدة، اتّخذوا البصرة مقرّا لهم وآثروا السلم على الحرب تزعّمهم أبو بلال مرداس بن أُدية التميمي.

شهد أبو بلال هذا وقعة صفّين مع عليّ بن أبي طالب وأنكر التحكيم واشترك في وقعة النهروان مع المحكّمة ضدّه. وكان لوقعة النهروان صداها الأليم في نفسه لِما حدث من فتنة بين المسلمين ولِما حلّ بأقاربه وأقرانه من قتل وتشريد من إخوانهم في الدين. ورأى أنّ القتال بين أبناء العقيدة الواحدة أمر لا يجوز، فانسلّ مع نفر من أصحابه وأقام مع أبناء عمّه من قبيلة تميم في البصرة حيث كانوا كُثْرًا آنذاك. وقد حظي أبو بلال مرداس وأتباعه بحماية قومه بني تميم وزعيمهم الأحنف بن قيس، فأخذ ينشر آراءه وأفكاره بالإقناع والمناقشة بدلا من الحرب وأنكر قتل المخالفين واستعراض الناس على طريقة غلاة الخوارج، ودعا أتباعه إلى أن لا يجرّدوا سلاحا ولا يقاتلوا أحدا إلاّ إذا تعرّضوا للعدوان وأُجبروا على القتال. وقد نشط مرداس في البصرة لنشر دعوته وأفكاره، فانضمّ إليه عدد كبير من الناس جلّهم من بني تميم، ثمّ أخذ أنصاره يزدادون حتّى بنوا لهم مسجدا خاصّا في البصرة.

كان لحماية قبيلة تميم له ولأتباعه ولسيرته الحسنة وصدق اجتهاده وحلاوة منطقة أثر كبير في انضمام الناس إليه. وسياسة زياد بن أبيه تجاه القعدة أتباع مرداس كانت ليّنة سمحة، فكان لا يجرّد سيفه على أحد منهم إلاّ إذا همّ بالخروج، بل كان يخطب ودّهم ويداريهم حتّى يتفرّغ لقتال غلاة الخوارج الذين كانوا يغيرون على القرى ويقتلون الناس ويسلبونهم. وقد روي عن زياد أنّه كان يسلّي القعدة في البصرة ويغدق عليهم الهبات ويدعو بعضهم إلى السمر في مجلسه. وكان يولّي أناسا منهم بعض أعماله. ثمّ وَلِيَ عبيد الله بن زياد أمر العراق سنة 55هـ فاتّبع سياسة مغايرة لسياسة والده تجاه القعدة، ولم يدّخر وُسْعًا في استعمال القسوة والعنف على جميع الخوارج الغلاة والمعتدلين.

كان القعدة في البصرة ينكرون الاستعراض ويحرّمون أموال المسلمين خلافا لما كان يفعل غلاة الخوارج، ومع ذلك اشتدّ ابن زياد في مطاردة القعدة في البصرة وحبس شيخهم أبا بلال، ولكنّه أطلق

سراحه من بعد. ولا تشير المصادر إلى سبب عفوه عن أبي بلال، وهذا الموقف المتسامح من أبي بلال لم يشمل أتباعه وبقي ابن زياد يلاحقهم ويشتدّ طلبهم، واتّبع ضد النساء منهم أسلوب التعرية والصلب، وتذكر بعض المصادر أنّه أتى بالبلجاء، وكانت على رأي أبي بلال ومن مجتهدات القعدة فقطع رجليها ويديها ورمى بها في السوق، كما قتل من بقي في سجنه من أصحاب أبي بلال. وكان لكلّ أولئك أثره الكبير في نفس مرداس، فقرّر أن يترك البصرة آملا في أن يأمن شرّ ابن زياد وينشر آراءه في جوّ أكثر حرّية وفي مواضع لم تصل إليها دعوته. فسار ومعه نحو أربعين رجلا من أتباعه حتّى نزلوا آسك، ليس في نيّتهم القتال. وخشي ابن زياد مع ذلك نشاط أبي بلال وانتشار دعوته فوجّه إليه أسلم بن زرعة في ألفي مقاتل وتقابل الطرفان في آسك ولكنّهم لم يقتتلا ورجع أسلم وجماعته مؤثرين السلامة والعافية. بعد عودة أسلم هذا وجّه ابن زياد إلى مرداس وأتباعه عباد بن علقمة المازني المعروف بعباد بن أخضر (أخضر زوج أمّه) على رأس قوّة من أربعة آلاف رجل وانتصر على مرداس وصحبه وأبادهم جميعا، وكان ذلك عام 61هـ.

كان لمقتل مرداس على أيدي القوات الأمويّة صدى عميق في نفوس أتباعه وقد أثار نقمة شديدة على ابن زياد. وهكذا صمّم أتباعه على الأخذ بثأره واستطاع نفر من أتباعه اغتيال عباد ابن علقمة المازني. ومنذ ذلك الوقت أصبح الاغتيال السرّي وسيلة هامّة لدى القعدة للتخلّص من كلّ شخص يحاول إيذاءهم.

تذكر المصادر الإباضيّة صراحة بأنّ الشاعر المعروف عمران بن حطان كان رئيس القعدة بعد وفاة مرداس، وقد سار على منوال أبي بلال في نشر دعوته وإنكار الاستعراض وتحريم أموال بقيّة المسلمين ودمائهم.

عندما تولّى الحجّاج العراق عام 75هـ، اشتدّت دعوة القعدة، فاشتكى الحجّاج لعبد الملك بن مروان من نشاط عمران بن حطان زعيم القعدة آنذاك واستأذنه بحرّية التصرّف تجاه عمران وأصحابه بحجّة أنّ عمران قد أفسد عليه أهل العراق. وهكذا حبس عمران ولكنّه لم يلبث أن أطلقه وتذكر المصادر الإباضيّة أنّ أصحاب عمران قد اجتمعوا إليه بعد خروجه من الحبس فقالوا: « ...هلمّ إلى محاربة الحجّاج. فقال: هيهات ! غَلَّ يدًا مطلقُها، واسترقّ رقابة معتقها، والله لا حاربته أبدا... ». وقد أدّى هذا الموقف إلى انقسام في الرأي عميق بين أصحاب عمران من القعدة واختلفوا في الخطوة الواجب اتّخاذها إزاء التغيّرات التي حدثت نتيجةً لسياسة الحجّاج إزاءهم ولموقف عمران من الحجّاج

الوالي. وانتهى الجدل بينهم إلى انقسام القعدة إلى فرقتين: الصفريّة، وكانت ترى الخـــروج والثـــورة ولكنّها لا تكفّر من قعد كما فعل الأزارقة من قبل، والإباضيّة، وهي التي آثرت الاستمرار في القعود.

معظم المصادر بما فيها الإباضيّة تشير إلى أنّ اسم الفـــرقة الإباضيّة نســـبة إلى عبد الله ابـــن إباض. وعبد الله بن إباضٍ هذا لا نعرف عنه إلاّ معلومات يسيرة لا تكفي لتوضيـــح دوره في نشـــأة الإباضيّة. ولا تذكر المصادر شيئا من حياته الأولى ولا عن مولده وتاريخه، ولا تزوّدنا بمعلومات عـــن كيفيّة انضمامه للحركة. ولا يرِد اسمه في المصادر قبل اشتراكه في محاربة الجيش الشامي بجانب ابـــن الزبير عام 63هـــ. ويرى كلّ من العالم الإباضي محمّد بن يوسف اطفيـــش والمستشـــرق الطليـــاني روبيناتشي Rubinacci أنّ عبد الله بن إباض قد ارتحل إلى البصرة من نجدٍ. ولكن العالِمين لا يذكـــران متى حدثت هذه الرحلة وما هي أسبابها. وهل ارتحل إلى البصرة وحده أم مع جماعة من قبيلته تميمٍ التي استوطنت البصرة بعد الفتح الإسلامي.

يذكر ابن إباضٍ نفسه في رسالته إلى عبد الملك بن مروان أنّه أدرك معاوية وأنكر عليه أشـــياء كثيرةً. وهذا يدلّ على أنّه لم يكن حدثا إبّان خلافة معاوية (41هـــ/60هـــ) وأنّه كـــان في وضـــع فكريّ مكّنه من نقد سياسة معاوية.

أوّل إشارة صريحة موثوقة عن اشتراك ابن إباض في الحياة العامّة كانت اشتراكه إلى جانب ابن الزبير في الدفاع عن الكعبة ضدّ الجيش الأموي بقيادة الحصين بن نمير السكوني الذي خلف القـــائد الأموي مسلم بن عتبة عام 63هـــ. وكان قد ذهب إلى مكّة مع بعض قادة المحكّمة مثل نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق وغيرهما يدفعهم رغبتُهم وحماستُهم في الدفاع عن البيت الحرام على الرغـــم من اختلافهم في المبادئ مع ابن الزبير.

على أثر الخلاف بين ابن الزبير والمحكّمة الذين اشتركوا معه في قتال الشاميين ترك المحكّمـــة مكّة المكرّمة وعاد بعضهم ومنهم عبد الله بن إباض إلى البصرة عام 64هـــ. بينما اتّجـــهت طائفـــة أخرى منهم إلى اليمامة وبايعوا من بعد نجدة بن عامر الحنفي إماما لهم وسمّوا تبعا لذلك بـــالنجدات، ونادوا بآراء غاليةٍ مخالفة لما كان معروفا من اعتدال القعدة في البصرة.

بعد عودة المحكّمة من الحجاز إلى البصرة دار بينهم نقاش حادّ حول الخطوة الواجب اتّخاذها. وقد استقرّ رأي زعمائهم على الخروج ومن بينهم نافع بن الأزرق وعبد الله بن إباض وغيرهما. ولـمّـــا أرخى الليل سدوله سمع عبد الله بن إباض «دويّ القرّاء ورنين المؤذّنين وحنـــين المسـبّحين، فقـــال

لأصحابه: أعن هؤلاء أخرج معهم؟ فقرّر القعود ورجع وكتم أمره». وأيّا كان الأمر فالثابت أنّ ابن إباضٍ لم يقتنع بالخروج وأنّه فارق نافع بن الأزرق وأتباعه وبدأ فصل جديد في تطوّر حركة الخوارج تميّز بالفرقة والتراع وتكفير بعضهم بعضا، وانقسموا إلى قسمين أحدهما غالٍ والآخر مسالم معتدل. وقد مثّل الأوّلَ نافع بن الأزرق بينما مثّل الآخرَ مَنْ آثر القعود ومن أبرزهم عبد الله بن إباض.

على كلّ حالٍ يذكر ابن حزم والذهبي والبغدادي أنّه في الفترة التي تزعّم فيها ابن إباض حركة المعارضة لغلاة الخوارج تكوّنت الفرقة الإباضيّة ونسبت تكوينها إلى ابن إباض نفسه وعدّته رئيس الفرقة ومؤسّسها.

أمّا المصادر الإباضيّة فتنسب إلى عبد الله بن إباض دورا ثانويا بالموازنة بينه وبين جابر ابن زيد الأزديّ العماني الذي تعدّه إمام الإباضيّة (جماعة المسلمين) ومؤسّس فقههم ومذهبهم. وتذكر أنّ ابن إباض كان يصدر في أفعاله وأقواله عن جابر بن زيد. ومهما يكن من أمرٍ فإنّ ابن إباضٍ كان بلا ريب المناظر حقّا والمدافع قولا عن آراء القعدة.

إنّ جابرا كان الإمام الروحي وفقيه الإباضيّة ومفتيهم، وكان هو الذي رسم ملامح الفكر الإباضي بحيث أصبح متميّزا عن غيره من المذاهب الإسلاميّة، وكان ابن إباضٍ المسؤول عن الدعوة والدعاة في شتّى الأقطار ولذلك سمّته المصادر رئيس القعدة في البصرة وغيرها من الأمصار. وقد خلطت المصادر بينه وبين جابر بن زيدٍ لأنّ جابرًا كان قد أخفى معتقده واستعمل التقيّة الدينيّة فلم يخطر على بال أحد أنّه زعيم القعدة ومؤسّس مذهبها، ولأنّه لم يعرف لدى البصريين إلاّ بأنّه أحد التابعين المحدّثين الثقات وأهمّ فقيه في البصرة بعد الحسن البصري. والواقع أنّ جابرا كان ذا علاقةٍ وثيقةٍ بحركة القعدة منذ وقت مبكّر وأصبح أحد مفكّريها البارزين منذ بداية النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري وقبل مقتل أبي بلال مرداس عام 61هـ. وقد اكتسب ثقة أقرانه لعلمه ودينه فكلنوا لا يصدرون في شيء إلاّ بعد مشورته. ولكنّ ذلك قد خفي على مخالفيهم ولم يعرفوا له هذا الدور. ولذا نسبوا الفرقة إلى ابن إباض، وهو الشخص الذي قدّموه ليناظر أعداءهم ويتكلّم باسمهم علنا. كما أنّ مراسلاته مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أقنعت كثيرا من معاصريه بأنّه هو إمام الإباضيّة ومؤسّسها. والرسالة التي بعث بها إلى عبد الملك بن مروان تعدّ وثيقة هامّة للكشف عن الخطوط العريضة للآراء والمبادئ الإباضيّة في تلك الفترة المبكّرة من تاريخ الحركة.

أمّا نشاط ابن إباض بعد مراسلاته مع عبد الملك بن مروان فلا تذكر عنه المصادر معلومات موثوقةً يمكن الاطمئنان إليها. وكُتُب الطبقات الإباضيّة تجعل ابن إباض من رجال الطبقة الثانيّة أي الذين عاشوا خلال النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري وماتوا قبل عام 100هـ.

ونستطيع بعد استقصاء المصادر الإباضيّة وغيرها أن نلخّص المعلومات الموثوقة عن شخصيّة عبد الله بن إباض بالنقاط الآتيّة:

1. أنّ عبد الله بن إباض ينتمي إلى قبيلة تميمٍ التي كانت في صدر الإسلام من أهمّ قبائل البصرة وأكثرها عددا.
2. أنّ ابن إباض قد تلمذ لبعض زعماء المحكّمة مثل عبد الله بن وهب الراسبي أوّلِ إمام للمحكّمة وقائدِهم في النهروان.
3. أنّ المصادر لا تشير على الإطلاق إلى أنّه اشترك في حروب المحكّمة لعليّ بن أبي طالب.
4. أنّ أوّل إشارة صريحة واضحة حول ظهور ابن إباض على المسرح السياسي كان اشتراكه مع بعض المحكّمة في الدفاع عن الكعبة مع ابن الزبير ضدّ الجيش الشامي زمن يزيد بن معاوية.
5. أنّ القعدة بعد رجوعهم من البصرة إلى الحجاز قد اختاروا ابن إباض ليكون المتكلّم باسمهم والمجادل علنا تجاه مناوئيهم نخصّ بالذّكر غلاة الخوارج، وعلى رأسهم نافع بن الأزرق وأتباعه.
6. ظهر ابن إباض على المسرح السياسي مرّة أخرى بعد انقسام القعدة إلى ما سمّي بالصفريّة والإباضيّة في أوائل الربع الأخير من القرن الأوّل الهجري، واختارته الإباضيّة التي كان أتباعها يسمّون أنفسهم آنذاك أهل الدعوة أو جماعة المسلمين، ليكون المناظر باسمهم تجاه مناوئيهم من الخوارج وغيرهم من الفرق. وقد بعث إلى عبد الملك ابن مروان برسائله أو ما تسمّيه المصادر الإباضيّة نصائحه إلى عبد الملك بن مروان.
7. بعد ذلك اختفى ابن إباض فجأة ولا تذكر المصادر معلومات موثوقة عن مكان وفاته.
8. أنّ المصادر الإباضيّة تجمع على أنّ ابن إباض لم يكن إمامهم الحقيقي ومؤسّس دعوتهم وإن كان من علمائهم ورجالهم البارزين في التقوى والصلاح.

ولهذا السبب أغفلت الحديث عن كثيرٍ من جوانب حياة ابن إباضٍ ونشاطه. ويعدّ الإباضيّة، القدامى منهم والمحدَثون، جابر بن زيدٍ الأزدي إمامهم الأكبر ومؤسّس دعوتهم. و لم يكن ابن إباضٍ إلاّ واحدًا من أتباع فرقته و لم يصدر في شيءٍ من أفعاله وأقواله إلاّ بأمر الإمام جابر وإرشاده. ومن هنا لم يُسمِّ الإباضيّة أنفسهم بهذا الاسم و لم يرد في مصادرهم إلاّ في وقتٍ متأخّر.

9. بعد اختفاء ابن إباض أقلع الإباضيّة من المناقشة العلنيّة والجدل الكلامي مع مناوئيهم ومخالفيهم ولجؤوا إلى الكتمان المطلق في تنظيم دعوتهم. وكان لجابر دور تنظيميّ كبير في هذه المرحلة التي تُعرف في التاريخ الإباضي بدور الكتمان[1].



(1) اقتبسنا هذه النقاط التسع من **نشأة الحركة الإباضيّة** لعوض محمّد خليفات. عمّان، الجامعة الأدرنيّة، 1978.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

محاضرة حول تفسير قصيدة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الثميني

الأستاذ: الدكتور بوناطيرو لوط

أستاذ باحث في علم الفلك والتقنيات الفضائيّة

مقدّمة

عاش ضياء الدين الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الثميني من 1130 هجريّة إلى 1223 هجريّة، أي ما بين 1718م و 1808م، كانت الأمّة الإسلاميّة دخلت عهد الانحطاط، بينما في أوروبا النهضة الفكريّة كانت في تطوّر متزايد. أمّا علم الفلك عرف منعرجا خطيرا في نظري وذلك بالطريقة المنتهجة، بدون أن يشعر، من طرف الفلكي المعروف "كوبرنيك" أثناء تصميمه لنظريّته المعروفة بـ«دوران الكواكب حول الشمس»، والتي كانت في تناقض تامّ مع أفكار ومفاهيم الكنيسة آنذاك، الأمر الذي أدّى بهذا الفلكي للتصريح (المغرور في نظرنا) بمقولته المشهورة إلى مَن يريد أن يسمعه: لقد حرّرنا الفكر الإنساني من هيمنة «الكنيسة»، فاتِحًا بذلك الباب «للفكر اللائكي» الذي بدأ ينتشر، انطلاقا من أواخر القرن السادس عشر ميلادي، إلى كافّة الميادين الفكريّة الأخرى ليشمل الهيئات التشريعيّة وبالتالي «السياسة» بصفة عامّة قاطعًا بذلك، نهائيا، كلّ ربط مع تاريخ الإنسانيّة ووحي الديانات السابقة التي كانت تُعتبر، إلى ذلك الحين، بمثابة المنار اللازم لتجنّب ظلال الإنسان في حياته. منذ ذلكم الحين نشأ علم الفلك الحديث بعدما كان يُعرف بعلم التنجيم، ولكن جرّد من الجانب التنبؤ بالأحداث المستقبليّة بمعرفة مواقع النجوم والكواكب في البروج.

تفسير القصيدة

كان ضياء الدين الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الثميني يؤمن بعلم التنجيم ويمارسه بحيث أنّه قدّم لنا هاته القصيدة الشعريّة في النظم لشكّ لحصر معلومات علميّة كطريقة لحفظ أخبار فلكيّة

للأجيال القادمة. على كلّ كانت تلك هي وسائل تعبيرهم آنذاك، وكانوا يسمّون هذا الأمر بعقد الكلام فيما لبعض الأفاضل فيما عدا النيّرين من الكواكب السيّارة.

تتناول قصيدة ضياء الدين الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الثميني خمسة مسائل وكيفيّة التنبّؤ بها عن طريق حسابات خاصّة بتجزئة ظاهرة «انقضاء الزمن»، وذلك انطلاقا من القاعدة الزمنيّة الهجريّة الخاصّة بالمسلمين لا غير؛ المسائل الخمس هنّ:

- نجم المصائب.
- سعد المراكب.
- سيف الكتائب.
- ارتفاع المناصب.
- سعد الكواكب.

فيقول في شأن معرفة نجم المصائب: فخذ بالعام الهجري وأسقط منه الخمسينات باللام ثمّ أقسم الباقي إلى ثلاثين شهرا قمريا، ففيه مبتدأ من برج الحمل بعد ذلك بقدر الكسر نجم المصائب. أمّا لمعرفة سعد المراكب يغيّر الشاعر إشارته للأعداد وقيمتها باستعمال لغة الحساب الأبجدي كما يلي:

جدول الحساب الأبجدي

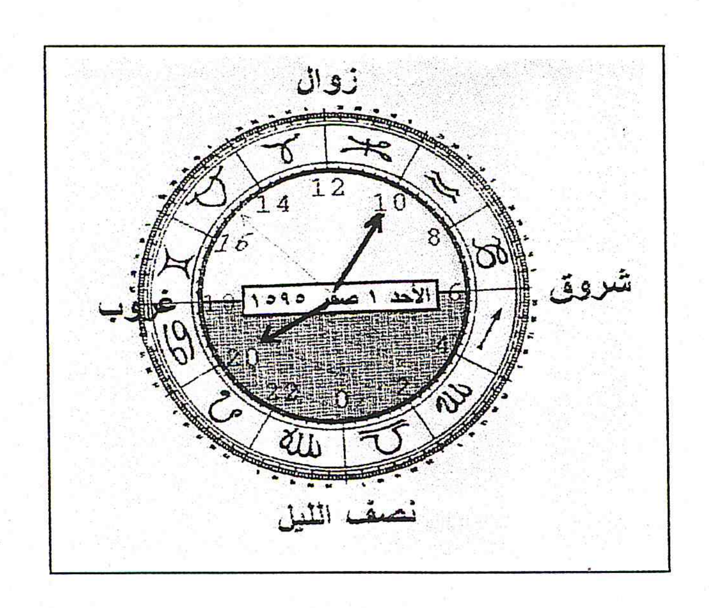
أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
1	2	3	4	5	6	7	8	9	0
ك	ل	م	ن	س	ع	ق	ص	ف	ر
20	30	40	50	60	70	80	90	100	200
	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ	
	300	400	500	600	700	800	900	1000	

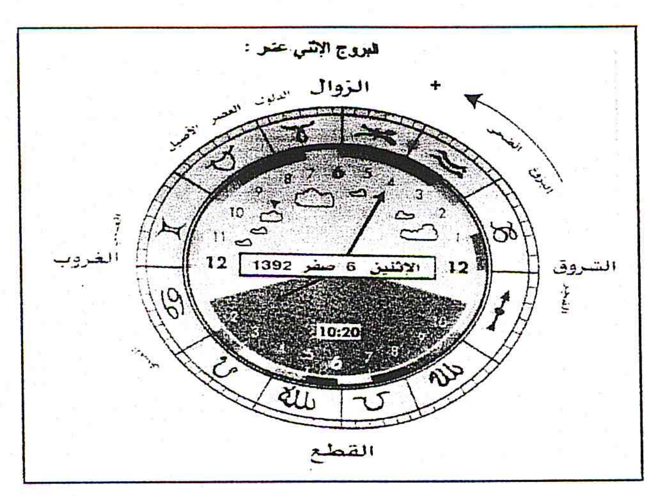
وذلك ربّما تفنّنا في العبارة الشعر النظم. على كلا حسب ما فهمته نأخذ بالعام الهجري الذي نرغب في معرفة هل هو سعد المراكب فنقسمه على 240 الباقي نسايره بمقدار 14 أو 54 شهرا قمريا لكلّ برج من البروج الاستوائيّة 12 المعروفة مبتدئين هاته المرّة من الثوري فبقر ما انتهى بنا الحساب سعد المراكب.

وأمّا عن سيف الكتائب يقول ضياء الدين الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الثميني: وما زاد عن دائما التاريخ الهجري للعامّ المرغوب فيه معرفة هذا الأمر، عن 400 عام ثمّ اطرح 36 شهرا قمريا (أو 37؟) ثمّ الباقي هلال ونصفه من الوزن فحيث انتهى فيه الحساب هنالك سيف الكتائب.

ويقول في شأن «عالي المناصب» بإشارة لأوّل مرّة إلى التقويم الشمسي وانطلاقا من 15 دجنبر إلى يومك أضف لهذا العدد 5 واطرح 15 تضحي (أي تصبح) عالي المناصب. وأخيرا مبتدأ من برج العجائب ألا وهو برج الميزان معطيا لكلّ برج العدد 15 فأين انتهى بك الحساب فإنّه بقدر الكسر سعد الكواكب.

يختم ضياء الدين الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الثميني قصيدته كما كانت العادة بالصلاة والتسليم على النبيء ﷺ وأصحابه، على الآل والأهل.





نصّ القصيدة

هذا عقد الكلام فيما لبعض الأفاضل فيما عدا النيرين من الكواكب السيارة
للشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الثميني رضي الله عنه

ألا ناظم في العقـــد درّ الثواقـــب	يقول ويجــلي سائرات الكواكـــب
فإن شئت ترحيل المقاتل فاســـقطن	سنّي هجرة باللاّم وانظر أصاحـــب
إلى ما بقي دون الثلاثـــين فابتـــدا	من الحمل واعط كلّ برج مطـــالب
ثلاثـــين شهرا حيثـــما نفـــذت به	ففـــيه بقدر الكـــسر نجم المصائب
عن الميم بعد الراء ما زاد في الثـــرى	فخـــذ من سنين الهجر رعيا لطالب
بعامـــك فيهـــما وبيب أشهـــــرا	هنا الطـــرح وابتدا بجعل العجـــائب
فحـــيث انتهى بك الحـــساب فإنّه	بقـــدر الكسور فيه سعد المراكـــب
وما زاد في التـــاريخ عن دال مـــائة	لعامـــك منها خذ على رغم ناكب
فاطـــرح لوا أشهـــرا ثمّ ما بقـــي	فاعـــط لكـــلّ منـــه تبّا لعـــاتب
هلالا ونصفـــه من الـــوزن فابتدا	فحـــيث فـــنى ففيه سيف الكتائب
فعنـــد دخوله استقـــام مسـابحـــا	فقـــهـــقر أيّاما فيـــخرج لاعـــب
ففـــي زهرة من يوم كه دجـــنبر	ليومـــك خـــذ تحظى بنـــيل المآرب
تضيف لما حصّلته خمسة واطرحنـــه	بكـــه تضـــحى عـــالي المنـــاصب
واحفـــظ من الاطراح ما قد حويته	وابـــدأ مـــن الميزان برج الغـــرائب
فاعط من الأيّـــام كـــها أصاحـــب	لكـــلّ من الأبراج ذات العجـــائب
فحيث فنى فيـــه الحســـاب فإنّـــه	هناك بقدر الكسر سعد الكـــواكب
شيخنـــا تـــرك الأفاضـــل كاتـــبا	لما أنّه للشـــمس غـــير مجـــانب
ومنّي الصلاة والسلام على النـــبيء	وأصحـــابه والآل أهـــل المنـــاقب

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبد العزيز الثميني وصِلَته بعُمان

الدكتور محمّد بن قاسم ناصر بوحجّام

تمهيد

الشيخ عبد العزيز الثميني (1130–1223هـ) رحمه الله؛ أحد العلماء الأعلام، الذين كان لهم فضل التجديد الفكري في إطار المذهب الإباضي، ومن ثَمّ تعدّدت جهوده في ذلك إلى الفكر الإسلاميّ، إذ الفكر الإباضي أحد الروافد لهذا الفكر.

للشيخ عبد العزيز باع كبير في العلم، وبخاصّة في العلوم الشرعيّة، نبغ في العلم وهو صغير «أتاح له شيخه أبو زكرياء المجال لكي يحلّ محلّه، ويقوم بالدور الكبير، لأنّه رأى فيه النجابة، وشاهد فيه الذكاء، وتوضّحت له عبقريّته وألمعيّته. لذلك لابدّ أن تكون له علاقات، وإن كانت غير مباشرة بجميع مناطق المذهب الإباضي»[1].

من هذه المناطق بلاد عُمان، التي كانت العلاقة بينها وبين المغرب الإسلاميّ قد بدأت مبكّرة، منذ القرن الثاني الهجري، وما تزال متّصلة: «...وقد تعدّدت هذه العلاقات الثقافية وتنوّعت، فمن رحلات علميّة، وتبادل للزيارات، قام بها علماء هذه البلدان، كلٌّ إلى بلد الآخر، ومن الْتِقاءٍ لهم على أرض مكّة في موسم الحجّ، حيث يجتمع علماء الإباضية من المشرق والمغرب، يتبادلون الرأي والمشورة، ومن تبادل الكتب والمراجع العلميّة، ومن مناظرات علميّة، وطلب للفتوى فيما يستغلق عليهم فهمه من أمور الفقه والمذهب، إلى غير ذلك من الأمور التي أدّت إلى زيادة الروابط الفكريّة والثقافيّة والعلميّة بين الجانبين»[2].

---

(1) الشيخ أحمد بن سعود السيابي، مقابلة شخصية معه في مترله، روي، يوم: 02 صفر 1420هـ/1999م.

(2) الدكتور رجب محمّد عبد الحليم، **الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عُمان والبصرة**، مطابع النهضة، مسقط، سلطنة عُمان، سنة: 1410هـ/1990م. ص: 148. يُنظر أيضا كتابنا: **التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر.** (مخطوط).

ولكون عُمان هي الموطن الأوّل للمذهب الإباضي، وقاعدته الأولى التي انطلق منها؛ فلا شكّ أنّ كلّ نتاج فكريّ إباضيّ يصل إليها ويهتمّ به علماؤها، كما أنّ نتاج علماء عُمان يصل إلى المناطق الأخرى.

من جملة هذا النتاج ما أبدعته قريحة الشيخ عبد العزيز الثميني، فيكون البحث في علاقة عبد العزيز بعُمان ضرورة ملحّة لمعرفة إحدى حلقات التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب، ولربط حلقات النشاط الثقافي والإبداع الفكري والنتاج العلمي بين إباضية المشرق والمغرب، وللإجابة عن كثير من الأسئلة، التي تعين على الوقوف على خصوصيّة هذا الفكر، ونوعيّة النشاط الذي قام به الأسلاف، ولتأصيل هذا الفكر وإنصافه...

لهذا لمّا وصلتني دعوة كريمة من الجمعيّة الثقافية القطبية ببني يزقن للمشاركة بمحاضرة في الأيّام الدراسيّة حول فكر الشيخ عبد العزيز الثميني، فرحت وتأسّفت! فرحت لأنّ هذه الدعوة ستكون لي دافعا آخر يحثّني على الاستمرار في بحثي الذي شرعت فيه منذ سنوات، وهو **التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر**، وتأسّفت لأنّني لن أتمكّن من تقديم شيء جديد في الموضوع أو إعداد ما يشفي الغليل، لأنّ البحث في موضوع: **علاقة الشيخ عبد العزيز الثميني بعُمان** ليس سهلا. الشروع فيه مغامرة، تشبه مخاطرة السائر في مفازة، المعالم فيها غير واضحة، يُخاف عليه التيه، وقد يضطرّ إلى التراجع عن المسير، لجهله كيف يكون المصير، وهو يعلم أنّه مهما يقلّب بصره فقد ينقلب خاسئا وهو حسير.

مع ذلك استعنت بالله، وسألته العون والتوفيق، وقلت لابدّ من عمل شيء، وبذل جهد لتقديم شيء ولو يسيرا في هذا المجال، يكون نبراسا للأجيال.

قمت فأعددت الأسئلة الآتية وعرضتها على مجموعة من المشايخ والأساتذة[1]:

1. كيف كانت علاقة الشيخ عبد العزيز الثميني بعُمان؟

(1) المشايخ والأساتذة هم: سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، الشيخ سعيد بن حمد الحارثي، الشيخ سالم بن حمد الحارثي، الشيخ أحمد بن سعود السيابي، الدكتور إبراهيم بن أحمد الكندي، الدكتور مبارك بن عبد الله الراشدي، وغيرهم.. .

2. كيف كانت مراسلاته إلى عُمان؟

3. أين توجد هذه الرسائل؟

4. من عاصر من العلماء العُمانيّين؟

5. كيف وصلت مؤلّفاته إلى عُمان؟

6. ما هي مؤلّفاته التي اعتنى بها العُمانيّون: نظما وشرحا واختصارا وتعليقا وتحشيّة؟

7. ما هي المؤلّفات العُمانيّة التي اعتنى بها الشيخ عبد العزيز الثميني: شرحا وتعليقا ونظما...؟

8. هل التقى بشخصيّة عُمانيّة؟

9. ما هي المراجع العُمانيّة التي تناولت حياة الشيخ عبد العزيز الثميني؟

10. كيف ينظر العُمانيّون إلى شخصيته؟

11. ما هو تقييمكم لمؤلّفاته وشخصيته؟

وقد كانت ردود أفعال المشايخ مختلفة: منهم من اعتذر -بتواضع كبير وبأدب جمّ- وقال إنّه لا يعرف إجابة واحدة عن هذه الأسئلة. ومنهم مَن قال: اعطني مهلة كافية للبحث في الموضوع. ومنهم مَن أرشدني إلى بعض المصادر والمراجع، وقدّم لي الخطوط العريضة لتناول الموضوع، ومنهم مَن قدّم لي إجابات مستفيضة عن بعض الأسئلة، واعتذر عن الأخرى، وأفادني ببعض الاستنتاجات والتأويلات، وعرض بعض الإشكالات...

المهمّ إنّ الموضوع -قبل ذلك وبعده- يحتاج إلى جهد جهيد، وعزم شديد، وصبر من حديد، ووقت مديد، وفكر سديد، ونظر بعيد لإنجازه، عسى أن تسمح الظروف لتقديم شيء جديد، ..وتسخو الأيّام بما يشفي الغليل لإنصاف صاحب كتاب **النيل وشفاء العليل**.

أحاول -في الصفحات الآتية- تناول هذا المو ضوع بما يسمح لي به الوقت وما توفّر لي من معلومات. وأشير إلى أنّ ما أقدّمه لا يتعدّى تقريرا أوّليًّا يضع الخطوط العريضة لهذه العلاقة، ويقدّم إشكالات، ويسجّل ملاحظات عامّة تفتح المجال لبحث صِلة الشيخ عبد العزيز الثميني بعُمان. وسيُتبَع ذلك -إن شاء الله- بعمل أكثر شموليّة واستقصاء.

ملاحظات عامّة

1 – عاش الشيخ عبد العزيز الثميني عهدا، كان التعصّب المذهبي قد بلغ ذروته، وكانت الانحيازات الفكريّة واضحة، وأصبحت الحواجز المذهبيّة عوائق أمام انتقال الأفكار بين المذاهب الإسلاميّة. هذا ما يُنتِج نتيجة خطيرة وهي: إنّ العالِم يبقى مسموعا في محيط مذهبه، وفي مناطق متعدّدة، حيث يوجد ذلك المذهب.

المدرسة الإباضية عاشت هذه الوضعيّة. فقد تعرَّضت للتهميش، ومورس ضدّها التحيّز.. فكان من رُدود الأفعال المتولّدة عن ذلك بحث أتباعه عن أيّ عالِم أو مفكّر منجد، يعرِّفهم بمذهبهم وأفكاره، ليتمسّكوا به، أي يسألون عن المرجعيّة العلميّة والفكريّة التي تكون الملجأ والملاذ. هل كان الشيخ عبد العزيز الثميني ممثّلا لهذه المرجعيّة؟

2 – عاش الشيخ عبد العزيز وعايش –في موطنه وادي ميزاب– عصر التحجّر الفكريّ، وفترة الفتن، ومظاهر الجهل. وعاش –جرّاء ذلك– مغموراً، مهضوم الحقّ، بل مظلوما..، وظلّ مهمَّشا، أو على الأقلّ مضطهدا في فكره.

3 – عاصر الشيخ عبد العزيز عصر الفتن في عُمان، فترة نهايةِ دولةِ اليَعارِبَة، وانتقالِ الحكم إلى دولة البوسْعيديّين. والفتنُ التي حصلت أتلفت الكثير من الوثائق والرسائل، التي يمكن أن نجد فيها ما يكشف عن علاقة الشيخ الثميني بعُمان. وقد تُبينُ عن العطاء الفكري، والغناء التراثي. مثلا أُتلفت مكتبة أبي نبهان، التي كانت تضمّ حوالي ثمانية آلاف كتاب[1].

4 – الشيخ عبد العزيز، نتيجة تعمّقه في مختلف المعارف، اشتهر بقوّة شخصيّته، وبمؤلّفاته القيّمة. «فقد أمسك بزمام علوم الآلة، وبخاصّة علوم العربيّة؛ فلذلك جاءت كُتبه في صيغة مُتون مركّزة وقويّة، قويّة العبارة وجزلة..»[2].

---

(1) الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، مقابلة شخصيّة معه في مكتبه بجامع السلطان قابوس، روي يوم: 01 صفر 1420هـ/17 ماي 1999م.

(2) الشيخ أحمد بن سعود السيابي، مقابلة شخصيّة.

5 – عاصر الشيخ عبد العزيز بعض علماء عُمان، منهم أبو نَبْهان الشيخ الرئيس، جاعد بن خميس الخَروصي (1147–1237هـ). وابنه ناصر بن جاعد بن خميس الخروصي (1192–1262هـ/1778–1847م)، والشيخ سعيد بن أحمد بن سعيد الكِندي (ت.1207هـ–1792م) صاحب كتاب **التفسير الميسّر للقرآن الكريم**[1]، وأستاذ الشيخ جاعد بن خميس الخروصي، والشيخ سعيد بن بشير الصُّبْحي، والشيخ سالم بن سعيد بن عليّ الصائغي المَنْحي (عاش في ق: 13هـ)، والشيخ مُهَنَّا بن خَلَفْ أو خلفان بن محمّد البوسعيدي (عاش في ق: 13هـ) صاحب كتاب: **لُباب الآثار**، وغيرهم...

6 – يَعدّ العُمانيّون الشيخَ عبد العزيز الثميني عالِمًا من علماء المذهب الكبار، الذين يرجع إليهم فضل التجديد (في المذهب الإباضي) من ناحية المنهجيّة والأسلوب في الكتابة، وفي تناول القضايا. وله فضل تأصيل الفكر الإباضي، ويرونه من خيرة «مَن هضم التراث الإباضي العَقَدي منه والفقهي، وصهره في بوتقة، بأسلوب رائق جميل، بمنهجيّة المتن، فلذلك أقبلوا على كتبه من باب الحفظ، وهم –طبعا– يُجلّونها، ويعتبرونها مصادر ومراجع في الفكر الإباضي. وهم يجعلونه في مصافّ العلماء الكبار والأئمّة المجدّدين»[2]، «يحترمه العُمانيّون، ويَعدّونه مجدّدا للدين»[3].

هذه الملاحظات تبيّن قوّة شخصيّة الشيخ عبد العزيز الثميني، وقدرته الفكريّة، وتؤكّد مكانته ومنزلته العلميّة بين أهل الإنصاف والتقدير. وتكشف عن دوره البارز في خدمة الفقه الإباضي ونشر فكره، وتُظهر عمله الكبير في تجديد هذا الفكر.

كان لابدّ –إذن– لرجل بهذه المواصفات وهذه المكانة؛ أن تكون له علاقة كبيرة بإخوانه في المذهب الموجودين في مناطق أخرى، وبخاصّة في عُمان.

لكن ممّا يؤسف له إنّ هذه العلاقة غير معروفة إلاّ بقدر يسير، ممّا سنذكره فيما يأتي. لست أدري ما هو السبب؟ هل إنّ هذه العلاقة غير موجودة أصلا بسبب حالة الظلام التي كانت سائدة في

(1) الكتاب يقع في ثلاثة أجزاء، وقد حقّقه الأستاذان: مصطفى بن محمّد شريفي، ومحمّد بن موسى باباعمّي.

(2) الشيخ أحمد بن سعود السيابي، مقابلة شخصيّة.

(3) الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، مقابلة شخصيّة.

عُمان وفي وادي ميزاب: ظلام الجهل والفتن، كما قال الشيخ أحمد بن حمد الخليلي عن هذه الفـــترة: «كان الاتّصال بين المشرق والمغرب ضعيفا، كان الناس في حاجة إلى إحياء العلم»[1]. أم إنّ الفتن التي حدثت منعت الاتّصال بين الجناحين؟ أو على الأقلّ صعّبت هذه الاتّصالات؟ أم لم تتح فرص ليتعرّف كلّ جناح على ما في الجناح الثاني من علم وفضل وخير؟ أم إنّ هذه الاتّصالات كـــانت موجــودة: سواء عن طريق اللقاءات أم الرسائل..، لكن آثارها غابت، والوثائق التي سجّلت ذلـــك ضـــاعت؛ بسبب الفوضى التي عمّت، والفتن التي سادت، وبخاصّة في عُمان في نهاية دولة اليعاربة؟ هذه المســألة في حاجة إلى بحث وتعليل وتفسير.

وجّهْنا أسئلة إلى المشايخ حول بداية علاقة الشيخ عبد العزيز الثميني بعُمان، وكان الجـواب لا ندري بالتحديد متى بدأت، وكيف تعرّف العُمانيّون على شخصيّته.

لم يعرف ما إذا كان الشيخ عبد العزيز الثميني قد التقى بشخصيّة عُمانيّة أم لا؟ إلاّ أنّ الشـيخ أحمد بن سعود السيابي يقول يمكن أن يكون قد حصل ذلك وعن طريق الحجّ. فطالما تعوّد الإباضيـــة الالتقاء في الحجّ. وطالما يكون الشيخ عبد العزيز قد حجّ؛ فلابدّ أن يكون لقاء الشيخ مع شـــخصيّات عُمانيّة قد حصل. هكذا كانت إجابته عامّة، غير محدّدة. كما سألنا عن مراسلاته مع العُمانيّين، وقــد كان الجواب: ليست لنا معلومات دقيقة في الموضوع. ويبدو أنّه لم تكن هناك مراسلات بين الشـيخ عبد العزيز والعُمانيّين[2]. إلاّ أنّ الشيخ أحمد الخليلي لا يستبعد أن تكون بين الشيخ عبـــد العزيـــز والشيخ جاعد بن خميس الخروصي اتّصالات. بل أكّد لي أنّه كانت هناك اتّصالات بين أبي نبـــهان ثمّ ابنه ناصر وأهل المغرب. وهناك سبعة عشر سؤالا وجّه من بني يزقن إلى أبي نبهان أو ابنه ناصر. ذكـر ذلك صاحب **قاموس الشريعة** في الجزء الثالث عشر. وذكر لي أنّ هناك من زار أبا نبهان مـــن أهـــل المغرب. يبدو أنّ من بينهم ابن ادريسو أو إبراهيم بن يوسف طفيّش[3]. ألا يمكن أن يكون الشـــيخ عبد العزيز ضمن من اشترك في هذه المراسلات والاتّصالات، وهو شيـــخ الحلقة والعالِم، ومـــرجع

---

(1) مقابلة شخصية.

(2) الشيخ أحمد بن سعود السيابي، مقابلة شخصية، والشيخ سالم بن حمد الحارثي. ذكر لي ذلك في رسالة مؤرّخة بيـوم: 25 محرّم 1420هـــ.

(3) مقابلة شخصيّة.

الفتوى والعلم في وادي ميزاب؟

في نظري إنّ الموضوع في حاجة إلى بحث واستقصاء. ربّما كانت إشارات أو إيماءات عن ذلك في ثنايا الكتب التي تذكر الشيخ عبد العزيز، سواء تلك التي تناولت آثاره أم التي تحيل إلى آرائه، أم مؤلّفاته ذاتها.. .

لماذا تكون المراسلات مستمرّة عبر المراحل والعصور، وتنقطع في عهد الشيخ عبد العزيز؟ ومتى هو بالذات؟

أنا شخصيا أستبعد انقطاعها؛ بدليل وجود رسالة أرسلها الشيخ عبد العزيز إلى عُمان وجربة وأنحاء المغرب الإسلامي؛ طلب فيها شراء كتب نفيسة في الفنون المختلفة[1].

في المسألة غموض كبير، وسرّ محيّر، لابدّ من الكشف عنه!

كما يذكر الشيخ أحمد بن سعود السيابي أنّ الشيخ عبد العزيز الثميني عرف بكتابه **النيل وشفاء العليل**، لكن هذا الكتاب لم يُعرف ولم يشتهر عند العُمانيّين إلاّ عن طريق **شرح النيل**: «و**النيل** كتب له الانتشار، ولكنّه كان سفيره **الشرح**»[2]، أي لمّا ألّف الشيخ الحاج محمّد بن يوسف طفيّش (ت.1914م) **شرح النيل** انتشر كتاب **النيل**.

وهناك مسألة أخرى هي: لماذا لم يتأثّر بمؤلّفات الشيخ عبد العزيز أحد من معاصريه؟ إنّما حصل التأثّر بها ممّن عاشوا بعده. بينما الوضع يختلف عند الشيخ طفيّش. هذا السؤال يفرض نفسه، ويثير الدهشة إذا استحضرنا الخصائص التي تتميّز بها مؤلّفاته، التي جعلت العُمانيّين يُقبلون عليها بشغف، كما ذكرنا سابقا.

بل إنّ مؤلّفات الشيخ عبد العزيز لم تصل إلى عُمان إلاّ متأخّرة، فلماذا هذا التأخّر في الوصول إلى الأرض التي كان الإعجاب فيها كبيرا بنتاج أحد أعلام المغاربة؟ وقد كان اللقاء يتمّ في الحجّ سنويا، وفيه تتناقل أخبار العلم والعلماء؟ ألم يكن من المفروض ومن الواجب أن يُنقل ما يؤلّف الشيخ

---

(1) محمّد عليّ دبّوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج1، ط1، المطبعة التعاونية، سنة: 1385هـ/1965م، ص: 267.

(2) مقابلة شخصيّة..

عبد العزيز؟ أو يذكر اسمه على الأقلّ: عالِما فقيها مفكّرا، فيتعرّف عليه أهل المشرق مبكّرا؟ هذه مسألة أخرى في حاجة إلى نظر وتحليل عميقين.

هناك مجموعة كبيرة من الأسئلة، تحتاج إلى إجابات مقنعة لمعرفة حقيقة ما حدث في حياة الشيخ عبد العزيز الثميني. ومن خلال الأجوبة التي نظفر بها يمكن لنا أن نقيّم شخصيّة الشيخ، ونحلّه المحلّ اللائق به.

تعقيب الشيخ عبد العزيز الثميني على مؤلّفات عُمانيّة

1. ألّف كتابا سمّاه: **مختصر حواشي الترتيب لمسند الربيع بن حبيب.**
2. شَرَح لامية ابن النظر، سمّى الشرح: **الأسرار النورانية على المنظومة الرائية.**
3. اِختصر كتاب **منهج الطالبين وبلاغ الراغبين** للشيخ خميس بن سعيد الشَّقْصي (توفّي حوالي: 1060هـ)، اختصره في سبعة مجلّدات، سمّاه: **التاج المنظوم من دُرَر المنهاج المعلوم.** والشيخ الشّقصي من أبرز علماء الدولة اليعربية، وهو الذي قامت عليه إمامة اليعاربة، بداية من الإمام ناصر بن مرشد (1004-1050هـ/1595-1640م)، وهو أحد طلبة الشيخ الشقصي.

تعقيبات العُمانيّين على مؤلّفات الشيخ عبد العزيز

1. الشيخ سيف بن حمد الأغبري (ت.1380هـ/1960م) نظّم كتاب **الورد البسّام في رياض الأحكام،** سمّاه **فتح الأكمام عن الورد البسّام.** يقول الشيخ أحمد بن سعود السيابي: «كذلك من الكتب التي صارت مرجعا في الأحكام القضائيّة **الورد البسّام.** إنّ هذا الكتاب ربّما انتشر في المشرق أكثر من المغرب، وأصبح مرجع القضاة..لأنّ القضاء في سلطنة عُمان صار واسعا، وفيها قضاة متعدّدون، فأقبلوا على كتاب **الورد البسّام،** يأخذون منه آلية تنفيذ الأحكام حتّى إنّ الشيخ سيف بن حمد الأغبري فهو من القضاة الكبار نظمه في كتاب سمّاه: **فتح الأكمام،** هذا دليل على اعتبارهم له، وتأثّرهم به، ورجوعهم إليه»[1].

(1) مقابلة شخصيّة.

2. نظم الشيخ خلفـــان بن جميل الســـيابي (1308-1392هـــ/1890-1972م) كتـــاب **النيــل وشفاء العليل** و**شرح النيل** في أرجوزة بلغت اثنين وثلاثين ألف بيت، سمّى هذا العمـــل **سلـك الـدّرر الحاوي غرر الأثر**، «والكتاب مطبوع في مجلّدين، وهو غزير المادّة، يشمل أبواب الفقه، مع الأخـلاق والتاريخ المحلّي والسيرة، وقد أضاف الشيخ السيابي على **النيل وشرحه**، وصحّح وضعّف»[1].

يذكر الدكتور مبْارَك بن عبد الله الرَّاشْدي أنّ الشيخ محمّد بن شامس البطاشـــي، صـــاحب كتاب **سلاسل الذهب** استعار كثيرا ممّا ورد في كتاب **النيل وشرحه**[2].

ذكر لي الشيخ أحمد بن حمد الخليل أنّ في كتاب **النيل** اقتباسات كثيرة، وتأثّرا كبيرا بـالتراث العُماني[3]، طبعا إلى جانب استفادة الكتاب من كُتب المغاربة.

كما أنّ الشيخ سعيد بن حَمَد الراشدي (1292-1314هـــ/1875-1897م) وهو أحد تلاميـــذ الشيخ السالمي (ت.1914م) نظم أحكام الجهاد متأثّرا بما ورد من أحكام الجهاد في كتـــاب **النيل**[4] والمنظومة تُسمّى: **الدفاع والجهاد**[5].

الشيخ عبد الله بن حميد السالمي في كتابه **مشارق أنوار العقول**، تأثّر كثيرا بكتاب **النيل**.

ممّن تأثّر بكتاب **النيل وشرحه**، الشيخ سُفيان الراشدي في كتابه في فـــنّ الفرائـــض **كشف الغوامض..**، وكذلك الشيخ عليّ بن محمّد المنذَري (عاش في ق: 13هـــ) قاضي زنجبـــار في كتابـــه **مختصر الأديان** تأثّرا كبيرا بمؤلّفات الشيخ عبد العزيز الثميني[6].

---

(1) الدكتور مبارك بن عبد الله الراشدي، **نشأة التدوين للفقه واستمراره عبر العصور**، يُنظر كتاب ندوة الفقه الإسـلامي، ط1، نشر وزارة العدل والأوقاف والشؤون الإسلاميّة، سلطنة عُمان، سنة: 1410هـــ/1999م، ص: 198.

(2) يُنظر كتابنا **التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر**. (مخ)، ص: 41.

(3) مقابلة شخصيّة مع الشيخ أحمد بن حمد الخليلي والشيخ أحمد بن سعود السيابي.

(4) الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، مقابلة شخصيّة.

(5) يُنظر **دليل أعلام عُمان**، جامعة السلطان قابوس، مكتبة لبنان (د.ت)، ص: 79.

(6) مقابلة شخصيّة مع الشيخ أحمد بن حمد الخليلي والشيخ أحمد بن سعود السيابي.

ومعظم مَن ألّف في الفترة المتأخّرة كان متأثّرا بكتاب **النيل وشرحه**، حسبما يرى ذلك الشيخ أحمد السيابي.

3. كتاب **معالم الدين** أهمّ مؤلّفات الشيخ عبد العزيز الثميني التي أقبل عليها العُمانيّون، لكونه في العقيدة، في أصول الدين. يذكر أحمد بن سعود السيابي أنّ نسخة منه وصلت عُمان في عهد الشيخ سعيد الخليلي (1226–1287هـ/1811–1870م)، ويقول: «أتوقّع أن يكون قد وصل عُمان قبل هذا التاريخ. ويضيف: أستبعد أن يكون الشيخ جاعد بن خميس الخروصي قد حصل على نسخة منه أو ابنه ناصر»[1]. ويقول الشيخ أحمد الخليلي: «إنّ الكتاب وصل إلى عُمان قبل قرن ونصف من الآن»[2].

ممّن تأثّر بكتاب **المعالم** الشيخ ناصر بن أبي نبهان الخروصي في كتابه: **الحقّ المبين**[3]، وهو في العقيدة. يمكن بعد إلقاء نظرة على كتابيْ **معالم الدين** و**الحقّ المبين** أن نقف على ما نقله الشيخ ناصر بن أبي نبهان عن الشيخ عبد العزيز الثميني.

وممّن تأثّر بكتاب **معالم الدين** الشيخ عبد الله بن حميد السالمي في كتابه **مشارق أنوار العقول**[4].

كما أنّ الشيخ عبد العزيز تأثّر كثيرا في كتابه **المعالم** بكتاب **كشف الغمّة** للشيخ السوحي، وقد أشار الشيخ عبد العزيز إلى ذلك كما ذكر لي الشيخ أحمد الخليلي[5].

---

(1) مقابلة شخصيّة. ما قاله الشيخ في حاجة إلى مناقشة.

(2) مقابلة شخصيّة.

(3) ذكر للشيخ ناصر بن جاعد الخروصي كتاب آخر اسمه **الحقّ واليقين** لست أدري هل هو كتاب **الحقّ المبين** نفسه أم غيره، يُنظر **دليل أعلام عُمان**، ص: 159. وكتاب **الحقّ المبين** مخطوط غير مكتمل الأجزاء، لأنّ الشيخ ناصر لم يتمّ تأليفه.

(4) الشيخ أحمد بن سعود السيابي، مقابلة شخصيّة.

(5) مقابلة شخصيّة.

يضيف الشيخ أحمد بن سعود السيابي: «يمكن ذلك، لأنّه ورد في آخر كتاب **كشف الغمّة** شيء عن العقيدة والفِرَق الإسلاميّة والمذاهب. وهذه الموضوعات تناولها الشيخ عبد العزيز في كتاب **المعالم**. إلاّ أنّني أرى أنّ الشيخ الثميني كان متأثّرا أكثر بكتاب **الكشف والبيان** للقلهاتي، لأنّ الكتاب كان أكثر انتشارا في المغرب من كتاب **كشف الغمّة**[1].

في الحقيقة إنّ رأي الشيخ أحمد السيابي له وجاهته، لأنّ الكتابين يتطابقان من حيث الموضوعات المتناولة فيهما.

الخاتمة

بعد النظرة العجلى والبحث المتعثّر في موضوع صِلة الشيخ عبد العزيز الثميني بعُمان تبيّن لي ما يأتي:

1. صِلة الشيخ عبد العزيز بعُمان كانت قويّة ومهمّة ومؤثّرة، وبخاصّة فكره. وتأثيره في حركة التأليف في عُمان كانت بارزة، وتأثّره هو بمؤلّفات العُمانيّين كان واضحا.

2. أزعم أنّ هذه الصِّلة جاءت متأخّرة عن عهده[2]، وبخاصّة وصول آثاره إلى عُمان، وانتشار مؤلّفاته فيها. وإذا ثبت ذلك وتأكّد فإنّنا نتساءل: لماذا كان هذا التأخّر؟

3. يبدو أنّ للظروف العصيبة أو السيّئة التي عاشها الإباضيّة في عُمان ووادي ميزاب أثّرا في عدم بروز شخصيّة الشيخ عبد العزيز: عالِما متميِّزا متبحّرا في العلوم، ومفكّرا مجدّدا في الفقه والفكر، فيتعرّف عليه أبناء المذهب الإباضي، وبخاصّة في عُمان، حيث كان أبناؤه حريصين على معرفة كلّ صغيرة وكبيرة عن أيّة منطقة ومكان، يكون فيه الإباضيّة، وخصوصا إذا كان الأمر يتعلّق بعالِم يمكن له أن يحيي القلوب، ويُنعش النفوس، وينشر العلوم.

4. صِلة الشيخ عبد العزيز تظلّ غامضة، وغير واضحة المعالم، وبخاصّة البدايات، وهو ما يفرض مجموعة من الأسئلة، نذكر من بينها ما يأتي:

---

(1) مقابلة شخصيّة.

(2) هذا الحكم مبدئي لغياب الدلائل والوثائق التي تنفي أو تثبت هذا الزعم.

أ- متى بدأ الاهتمام بكتب الشيخ عبد العزيز وبفكره، تعقيبا وتأليفا عليها؟ وإذا جاء الاهتمام متأخّرا فما سبب ذلك؟

ب- هل صحيح إنّ كتاب **النيل وشفاء العليل** لم ينتشر ولم يشتهر في عُمان إلاّ عندما عرف العُمانيّون كتاب **شرح النيل**؟

جـ- وهل شهرة الشيخ عبد العزيز جاءت بعد أن اشتهر الشيخ الحاج امحمّد طفيّش؟ إذا كان ذلك حقيقة، فلماذا حصل هذا؟

5. لابدّ من دراسة حياة الشيخ عبد العزيز دراسة معمَّقة، ومعرفة التفصيلات عنها، للإجابة عن كثير من الأسئلة التي بقيت من دون تفسير.

6. يجب قراءة مجموعة من مؤلّفات الشيخ عبد العزيز ومؤلّفات عُمانيّة، للوقوف على حقيقة الصِّلة بينه وبين عُمان، وعلى مدى تأثّره بالعُمانيّين وتأثيره فيهم، مثلا:

أ- يقارن بين كتاب **النيل وشفاء العليل**، وكتاب **مشارق أنوار العقول** للشيخ نور الدين السالمي، و**منظومة** الشيخ سعيد بن حمد الراشدي في أحكام الجهاد، وكتاب **كشف الغوامض** للشيخ سفيان الراشدي، وكتاب **مختصر الأديان** للشيخ عليّ بن محمّد المنذري، وكتاب **سلك الدرر** للشيخ خلفان بن جميل السيابي، وكتاب **السلاسل الذهبية** للشيخ محمّد بن شامس البطاشي.

ب- يقارَن بين كتاب **معالم الدين** وكتاب **الكشف والبيان** للقلهاتي، وكتاب **كشف الغمّة** للسرحي، وكتاب **مشارق أنوار العقول** للسالمي، وكتاب **الحقّ المبين** لناصر بن أبي نبهان، وكتاب **قاموس الشريعة** لخميس السعدي، وبعض مؤلّفات الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي، وبخاصّة كتابه **تمهيد قواعد الإيمان وتقييد شوارد مسائل الأحكام والأديان**.

ج- يقارَن بين كتاب **التاج** وكتاب **منهج الطالبين** للشيخ خميس الشقصي.

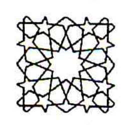
د- يقارَن بين كتاب **الورد البسّام** وكتاب **فتح الأكمام** للشيخ سيف الأغبري.

7. بعض ما أوردته من أقوال وآراء وتأويلات واستنتاجات وتقريظات..في حاجة إلى مناقشة ونقد وتمحيص وتوثيق، لأنّها تمثّل وجهات نظر خاصّة، ولأنّني لم أرجع إلى المصادر التي سجّلت شتات الموضوع. بمعنى: إنّني قدّمت الشيخ عبد العزيز برؤى خاصّة ممّن اعتمدت عليه في هذا التقرير، ومن خلال وصف خارجي لشخصيّته.

8. ما جمعته في هذا التقرير ونقلته يعدّ مفاتيح لدراسة شخصيّة الشيخ عبد العزيز الثميني، عسى أن يكون ذلك بداية لدراسة جادّة ومعمّقة، وأكثر دقّة وشمولية ومنصفة لشخصيّته وفكره وأعماله. والله وليّ التوفيق.

نزوى يوم الأحد 27 صفر 1420هـ

12 جوان 1999م



القضاء عند الشيخ عبد العزيز الثميني

بقلم د/ بحاز إبراهيم

المقدمة

تتناول هذه المحاضرة شخصية بارزة من شخصيات وادي ميزاب التي تركت بصماتها العميقة في مسيرة الإباضية مذهبا، وفي ميزاب والجزائر وطنًا، بل تعدّت شهرتها إلى خارج الوطن.

وإنّ الجمعية الثقافية القطبية لمشكورة على توفيقها في اختيارها لهذا العلَم محورا لهذا الملتقى الذي نرجو له كلّ النجاح والتوفيق.

إنّ محاضرتي تاريخية، ربّما محضة، وتتناول القضاء، أو الفكر القضائي عند الشيخ **عبد العزيز الثميني** الملقّب: بـ«ضياء الدين»، وهو فعلا ضياء للدين في الزمن الذي عاشه والذي بعده إلى يومنا هذا بما ألّفه من كتب في العقيدة والفقه والقضاء وغيرها من المجالات الشرعية التي أولاها الشيخ اهتمامه وملأ بها الفراغ الذي شعر به في التراث الإباضي.

أتناول موضوع القضاء عند الشيخ الثميني من خلال أربع نقاط :

- أولا : الثميني في نقاط.
- ثانيا : عصر الثميني.
- ثالثا : الثميني قاضيًا.
- رابعًا : خصائص كتاب **الورد البسام في رياض الأحكام** وهو مؤلَّف الثميني في القضاء.

وأتناول من هذه الخصائص: خاصية العنوان ثم خاصية المذهب والإنسان، ثم خاصية الزمان والمكان، وأختم ببعض محتويات **الروض البسّام**.

أولا : الثميني في نقاط .

ولد الشيخ عبد العزيز الثميني[1] عام 1130هـ/1718م ببني يزجن، وهناك تعلّم مبادئ العلوم في كتاتيب البلدة وعند مؤدّبيها، وسرعان ما انتقل إلى وارجلان للاشتغال، وأقام فيها إلى عام 1159هـ/1747م.

تتلمذ بعد ذلك عند الشيخ يحيي بن صالح الأفضلي الذي عاد إلى أرض ميزاب من الشرق عام

---

(1) عن إشكالية اسم والِد الثميني ونسبه انظر: قلاع ضروس عمر: ضياء الدين الثميني، حياته وآثاره: ص10-14.

1157هـ/1744م، وبعد ثلاث سنوات من تلك العودة أي عام 1159هـ/1749م دخل حلقة الأفضلي تلميذا مما يدلّ على أنّ الثميني لم ينقطع عن التعليم حتى في فترة شغله بوارجلان، ولعلّ ذلك التعليم كان عصاميا، المهمّ أنّه سرعان ما أظهر الكفاءة والنبوغ العلمي الأمر الذي أهّله للتأليف: فألّف **كتاب النيل وشفاء العليل**، وأتبعه بكتاب **التكميل** وهو تكميل لكتاب النيل وشفاء العليل وبعدها ألّف **الورد البسام في رياض الأحكام** وقد أنهاه عام 1186هـ/1773م.

تولّى الثميني مسؤوليات جمّة في المجتمع، مثل رئاسته مجلس عزّابة بلدته بني يزجن عام 1201هـ/1777م، استفتح بها القرن الثالث عشر الهجري كما استفتح بها العقد السابع من عمره، وذلك بعد وفاة شيخه الأفضلي الذي لازمه حوالي أربعين عاما من عام 1159هـ/1747م إلى 1201هـ/1787م.

ويبدو أن الثميني تولّى رئاسة مجلس عمي سعيد وكان مقصد الناس في الفتوى... إلاّ أنّه مرّ بفترة اعتزل فيها المجتمع تأديبا لهم، واضطرّ إلى الخروج من عزلته لإصلاح ذات البين في فتنة عشائرية[1].

توفّي الشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني عام 1223هـ/1808م، وعمره تسعون عاما بالتقويم الميلادي، ثلاثة وتسعون عاما بالتقويم الهجري.

ثانيا : عصر الثميني .

عندما نتحدّث عن الشيخ الثميني -رحمه الله- إنّما نتحدّث عن عالِم باعث للنهضة ومساهم في زمانه بلبنة من أجل أن تقوم قائمة للفكر الإسلامي الإباضي في هذه الربوع وفي غيرها من ربوع العالم الإسلامي.

وهو محيي للتراث ومجدّد للفكر الإباضي، وعندما نتناول عصره نجد أن الثميني كثيرا ما سمعنا أنّه يُقال عنه أنّه عاش في فترة الفتن، وأنا لا أنكر أن تكون في زمانه فتن كثيرة، ولكن إنّما تلك الفتن هي إرهاصات لتطوّرات في المجتمع الميزابي، تطوّرات سريعة جدًّا ستعمل عملها لكي ينهض المجتمع الميزابي أو مجتمع وادي ميزاب بكلّ عناصره، سوف ينهض ويقوم قومة، ويهبُّ لكي يصل إلى ما هو عليه من تطوّر في الفكر والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك ...

(1) قلاع الضروس: نفسه، وانظر معجم أعلام الإباضية.

إذن عصر الثميني يتميز بأنّه عصر الجهل[1] وفي نفس الوقت هو عصر بداية العلم، الثميني نفسه يقول بأنّ موادّ كتابه **النيل** لا يوجد في زمانه مباشرة من يستوعبها كلّها فهو الأول في القرن الثامن عشر للميلاد الذي استوعب العلوم الكثيرة وسيستمرّ هذا الاستيعاب للعلوم الشرعية الكثيرة عبر أجيال من بعده لكي يصل إلى ما نحن عليه اليوم.

هذا العصر: كما قلت إن كان عصر جهل وعلم، فهو أيضا عصر اكتملت فيه عناصر مجتمع وادي ميزاب: جاء الأعراب من هنا وهناك إلى هذا الوادي، واستقروا هنا وهناك، في ربوع هذا الوادي، وجاء اليهود من جربة ومن تمنطيط، ومن توقرت في القرن السابع عشر للميلاد، قبل عصر الثميني بقرن تقريبًا[2].

هذه العناصر شكّلت حركة اجتماعية كبيرة جدًّا في المجتمع، حرّكت الصنائع والزراعة والتجارة، هذا المجتمع كأنّه انفجر وأدّى به هذا الانفجار إلى أن تخرّج بعض العناصر من هذا المجتمع في القرن السابع عشر للميلاد لتؤسّس مدينتي بريان والقرارة[3]، وفي هذا العصر، وقبل الثميني بقرن، وهو من الإرهاصات كما قلت، تكوّنت واكتملت قرى وادي ميزاب واكتملت عناصر وادي ميزاب: البربر وهم الأمازيغ الميزابيون، العرب والأعراب وكذلك اليهود، فهذه الأجناس اجتمعت في هذا الوطن، وكذلك القرى اكتملت وانتهت ولم تُضَف بعد ذلك قرية، ولم ينشأ قصر جديد بعد هذا التاريخ، إذن المجتمع مقبل على التطوّر وهو ما وقع بالفعل.

إذا كان الثميني يقول أو يرى أنّ مجتمعه مجتمع جهل، ومجتمع فتن، فله الحقّ في ذلك، لأنّه كان يرى مجتمعه من الداخل أمّا نحن فإنّنا نرى هذا المجتمع بعد مرور قرنين من الزمان...

فالفتن سببها التطوّر السريع للمجتمع. المجتمع في حدّ ذاته وفي هذا الوقت بدأ ينتقل من مجتمع رعوي زراعي إلى مجتمع تجاري: السفر إلى الشمال، فالمنطقة أصبحت تطرد الميزابي وغير الميزابي، وهذه الحركة التجارية ستدرّ أرباحا على المجتمع، ومن هنا ازدهرت تجارة الميزابيين، وأكتنز الميزابيون أموالا، وأدّى هذا إلى طمع حتّى السلطة العثمانية آنذاك، والمجيء إلى المنطقة طمعا في الثروات والاستبداد بالرعية في وادي ميزاب، وتنافس بايلك الغرب وبايلك الشرق فضلا عن بايلك التيطري

(1) الثميني: كتاب التكميل، من مقدّمة ص2، وانظر قلاع الضروس: معالم الدين، دراسة وتحقيق: أطروحة ماجستير، الجزائر، ص49.

(2) الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص59-60-70.

(3) الحاج سعيد: نفسه، ص61. أُنشئت القرارة حوالي عام 1631م، وأُنشئت بريان حوالي عام 1679م.

في الوسط على وادي ميزاب، كلّها تريد أن تأخذ من مجتمع الوادي الضرائب... وجاءت محـــلاّت عثمانية أو لنقل هجومات عثمانية على الوادي تريد السيطرة على الخيرات، ولعلّ آخر المحـــاولات، محاولة صالح باي الشرق[1] (1771 – 1792م) فقد هَمَّ هذا الباي عام 1792م أن يقصد وادي ميزاب لاستعباد رجاله وسبي نسائه وأطفاله، وغنيمة أمواله، وكانت كارثة كبيرة على الميزابيين، وعـــاصر الثميني هذا الواقع، وكان عمره آنذاك أربعة وسبعون عاما، وزُلزل المجتمع الميزابي زلزالا شديدا بسبب هذا الذي يريد أن يصنعه صالح باي وكان من جبابرة السلاطين في زمانه، عاش الثميني هذه الفتنـــة ولكن الله سبحانه وتعالى كان لطيفا بعباده المؤمنين، وأنقذ الأمّةَ ببابا حسن داي الجزائر (1791هـــ – 1798م) الذي أوقف الباي عند حدّه ومزّقه شرّ تمزيق كما تروي مخطوطة ذلك[2].

هذا الذي يحدث في المجتمع الميزابي كما قلت، إنّما هو تطوّرات، نعم هـــي فـــتن في نظـــر الثميني[3] ومن عاش زمن الثميني ولكنّها هي تطوّرات سريعة جدًّا عرفها المجتمع في وادي ميزاب في هذا الوقت، هذه التطوّرات جعلت كما قلت الطامعين يرنون ببصرهم نحو هذه الربوع.

إذن هذا المجتمع الذي عاش الثميني في أحضانه كان فيه بمثابة الطبيب: فالمجتمع كان بسبب التطـوّرات السريعة، متعدّد الأدوار، فالتطوّر السريع دائما يترك أمراضا عديدة، وكان من حظّ الثميني وقـدَره أن يعيش في هذا النوع من المجتمعات وكان يحاول أن يداوي الأمراض التي يراها في المجتمع من خلال مــا ألّفه من كتب، ابتداء بـــ**النيل** ثم **التكميل** ثم **الورد البسّام في رياض الأحكام** هذا الكتاب هـــو في القضاء، وهو يمثّل الفكر القضائي عند الثميني.

ثالثا : الثميني قاضيا .

رغم أنّ النصوص التي بين أيدينا لا تشير إطلاقا على تولّي الثميني للقضاء في المجتمـــع، إلاّ أنّ الظاهر من نصوص الثميني نفسه من خلال بعض الفقرات، ومن خلال فقرات تراجم علمائنا للثميني، ترجّح أنّ الثميني تولّى القضاء، وإن لم يتسمَّ بهذا الاسم، ربّما لم يكن يتسمّى القاضي أو الحـــاكم،

(1) الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص57.

(2) بحاز إبراهيم: ثلاث رسائل مخطوطة من العهد العثماني بالجزائر، مقال نُشر بالمجلّة التاريخية المغاربية، تونـــس 1998. ص239.

(3) نقول شاهد عيان: « ...كثر الظلم والجور...تلاطمت فيه أمواج الفتن واستأسدت ذياب وعسابرها فاستولى علـــى الحكمة الجهّال، وغيّروا حدود الله، وبدّلوا حرامه بحلاله، وأخذوا في السلب والقتل، فلم يزالوا على ذلك حتّى سعوا في الأرض الفساد»، انظر قلاع ضروس: أطروحته، ص21، الكتاب المطبوع، ص8.

ولكن مسؤولياته كرئيس لعزابة بني يزجن[1]، وكرئيس لمجلس عمي سعيد، هذه المسؤوليات ترجّح أن يكون قد تولّى القضاء.

فمثلا في كتابه: **الورد البسام**، نقرأ هذه الفقرة : «فإنّي ما رُمته إلا عونا لي، ولمن كان من المحتاجين مثلي»[2]، فهو لم يؤلّف هذا الكتاب إلاّ ليكون له عونا في القضاء، و لم يكتبه إلاّ لنفسه، ولمن هو مثله في القضاء في قرى وادي ميزاب.

إذن ظروف الثميني تخوّله أن يكون قد تولّى القضاء، واشتهر أنّه مقصد الناس في خصامالهم، يحلّ لهم مشاكلهم، يصلح ذات البين[3]... هذه المهام كلّها تؤكّد أنّ الشيخ الثميني كان قاضيا، تولّى شؤون القضاء، رغم أنّ النصوص لا تصرّح بذلك، ولكن مسؤوليات الثميني في مجلسي عزابة بني يزقن وعمّي سعيد[4] وعِلم الثميني، كلّ ذلك يؤكّد أنّ الثميني مارس مهام القضاء وبلا منازع.

وممّا يؤكّد كذلك على اهتمام الثميني بالقضاء، وإحاطة القضاء بالثميني من كلّ الجوانب أنّه أخذ العلم عن عالم قاض، وهو شيخه الأفضلي، ولشدّة إعجاب الثميني بهذا الشيخ وبمهمّة القضاء بالذات عنده، نلاحظه يقول: «شيخنا الأستاذ الناشر للعلوم في الإخوان من سائر البلاد، قاضي القضاة...فارس ميدان الأقضية والأحكام وفخر القضاة الحكّام...عمّنا يحي بن صالح، أصلح الله أحوال الجميع.» [5]

فهذا التركيز على صفات شيخه القضائية، ومدحه بأنّه قاضي القضاة، وفارس ميدان الأقضية، ألا يتركنا نعتقد أنّه قد أخذ عن شيخه هذا العلم ومارسه في المجتمع بل ألّف فيه ما لم يؤلّف شيخه.

رابعا : خصائص كتاب الورد البسام .

القضاء من الوظائف المهمّة الضرورية في المجتمع، لا يخلو مجتمع من قاض عادل أو جائر عبر العصور، لابدّ أن يكون هناك قاض والسلطان قاض، ويعيّن نيابة عنه من يتولّى شؤون القضاء من

(1) الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص82، وانظر قلاع ضروس، ص41.

(2) الثميني: الورد البسّام في رياض الأحكام، ص3.

(3) أبو اليقظان: ملحق السير (مخ)، ص76-78، وانظر قلاع الضروس: ضياء الدين حياته وآثاره، ص38-39.

(4) يشير الشيخ عبد الرحمن بكلّي إلى أنّ الثميني ترك بعد تولّيه رئاسة مجلس عمّي سعيد أحكاما ووثائق تاريخية يستشهد بها، وتُعدّ عند من جاء بعده أعلاقا نفيسة تجب صيانتها، وحقّ للباحث قلاع الضروس أن يتساءل عنها وعن مكان وجودها ووجوب البحث عنها، انظر قلاع الضروس: ص51، انظر مقدّمة كتاب النيل، ص15.

(5) قلاع الضروس: ضياء الدين، حياته وآثاره، ص22.

فضٌ للمنازعات وإعادة للحقوق لأصحابها وزجر الظالمين عن ظلمهم تعزيرا أو حدًّا...

إنّ كتاب الثميني في القضاء **الورد البسام في رياض الأحكام** الذي ألّفه في سنة 1186هـ/1773م كان عمر الثميني آنذاك ستّة وخمسين عاما لمّا أكمل تأليف هذا الكتاب.

والشيخ الثميني كان ذكيًّا جدًّا لمّا ألّف هذا الكتاب، وإن كان قد قصد به نفسه كما قلنا، إلاّ أنّه لاحظ أن الفكر الإباضي، أو التراث الإباضي يخلو من كتاب مستقلّ في القضاء في زمانه يكون مختصرا ويكون بمثابة الكتب التي عند المذاهب الأخرى، فكلّ المذاهب على الإطلاق من مالكية وحنفية وشافعية وحنابلة وشيعة، كلّهم ألّفوا في الأحكام، وألّفوا كتبا أغلبها بعنوان **معين الحكام**، **تبصرة الحكّام**، **لسان الحكّام**، فهي عناوين متشابهة، وهي تبصرة للحكّام أي القضاة حتّى لا يجوروا، ومعين حتّى يتحرَّوا العدل ولسان لهم حتّى ينطقوا بالحقّ والعدل والحكم، ويأتي الثميني فيضع عنوانا بعيدا عن معنى العناوين السالفة ولذلك جاء في خطّة هذه المحاضرة شبه عنوان هو: «خاصية العنوان».

الغريب أنّ الثميني لم يسمِّ كتابه معينًا ولا تبصرة ولا لسانا وإنّما اختار عنوانا غريبا هو: **الورد البسّام في رياض الأحكام**، ولست أدري من أين استلهم هذا العنوان[1] ولا ما هو الدافع أو الموحي له رغم أنّه في النصّ الذي سبق أن ذكرناه يقول: «ليكون لي عونًا». فالهدف من تأليف الكتاب هو العون له ولمن هو مثله...ولكن لم يختر هدفه هذا عنوانا...وجعل الكتاب وردًا بسّاما في رياض، وكأنّه بهذا العنوان يشوّق القارئ إلى مطالعة أدبية أو كأنّه يريد أن يزيل الرعب والخوف الذي يكتنف المحاكم لكي تكون بمثابة الرياض والبساتين تزيل الهمّ وتنعش النفس وتبعث الأمل في الحياة فذلك هو الحكم العادل، والمحكمة العادلة ﴿وَلَكُم فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَآ أولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾[2].

إنّ هذا الكتاب ألّفه الشيخ الثميني معتمدا على **ديوان الأشياخ** في مادّته الأوليّة[3]. **وديوان الأشياخ**، كما هو معروف هو **ديوان العزّابة** في القرن الخامس الهجري (ق11م) وكذلك استقى الثميني مادّة كتابه من **كتاب الأحكام** الذي لا يزال مخطوطا، وهو من تأليف الشيخ أبي زكرياء يحي

(1) من المعروف أنّ السمناني المتوفّى عام 499هـ عنون كتابه بروضة القضاة وطريق النجاة، انظر أطروحتي: القضاء في المغرب الإسلامي من تمام الفتح حتّى قيام الخلافة الفاطمية 96هـ-296هـ، قسنطينة عام 1997م.

(2) سورة البقرة، الآية 179.

(3) بحّاز إبراهيم: القضاء في المغرب الإسلامي، ص10.

بن الخير الجناوني[1]، ولكن لم تتأكّد بشكل دقيق من هذا، ولعلّ الأستاذين الناضلين: أحمد كروم وعمر بازين سيصلان إلى شيء أدقّ وأضبط حيث أنّهما يعملان حاليا على تحقيق **كتاب الأحكام** وتخريجه وفّقهما الله.

بالإضافة إلى هذين المصدرين في الأحكام، لا نستبعد أن يكون الشيخ الثميني قد اقتبس مادّة ورده البسّام من التراث الإباضي الفقهي، ومن كثير السير والطبقات وهي كثيرة جدّا، إذ ظلّ الإباضية في المغرب يؤلّفون منذ منتصف القرن الثاني الهجري (ق8م) أي منذ أيّام الإمامة الرستمية، فظلّ هذا التراث المكتوب يتراكم، وظلّ الواقع المعيش للإباضية في كلّ زمان ومكان يعطي التجارب والحلول ولكن هذا التراث الكبير، لا ندري كيف وصل عند الشيخ الثميني وهو لم يخرج من وادي ميزاب إطلاقا: لم يخرج إلى جربة ولا إلى جبل نفوسة ولا إلى عُمان، فعلم الثميني وطني محلّي، والغريب أنّه استوعب علوم سابقيه وأضاف إلى تلك العلوم ما أضاف، فألّف هذا الكتاب وغيره تأليفا فريدا في منهجه.

إنّ منهج الثميني في التأليف هو الاختصار، ومنهج الاختصار ليس سهلا ولا ميسوراً لجميع المؤلّفين، والقرآن العظيم منهجه الاختصار وبعث الرسول ﷺ ليشرح ويفسّر ويوضّح القرآن الكريم. إنّ الشيخ الثميني اختصر مجلّدات وكتب سالفيه اختصارا بديعًا، ولا يقوى على هذا النوع من التأليف إلاّ من أوتي القدرة على الاستيعاب والحفظ والقدرة على انتقاء الكلمات المعبّرة ذات المعاني الدقيقة عند الضرورة أو المعاني الواسعة إذا دعا الأمر ذلك، وكتب الثميني في مجملها من هذا النوع من التأليف.

إنّ الشيخ الثميني –رحمه الله- يؤلّف هذا الكتاب للمذهب الإباضي، ليكون للإباضية كتابهم في الأحكام[2] مثلما هو بالنسبة للمذاهب الأخرى، والإباضية كما نقول دائما هي رافد من روافد التراث الإسلامي.

---

(1) أبو اليقظان: ملحق السير (مخ)، ص75. وانظر الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص83.

(2) لقد نظم قاضي القضاة العُماني سيف بن حمد بن شيحان الأغبري (ت1380هـ–1960م) هذا الكتاب وسمّاه فتح الأكمام عن الورد البسّام، وطبعته وزارة التراث القومي في عُمان عام 1981م. ويقول الناظم:

فلم أجد في كتب هذا المذهب ... كالورد عن عبد العزيز المغربي

حوى جواهر من الأحكام ... الورد إذ يبدو من الأكمام

انظر قلاع الضروس عمر: الأطروحة نفسها، ص58–59، وانظر قلاع الضروس: ضياء الدين، ص64.

إذا كانت المذاهب الإسلامية تفتخر بمؤلّفاها في الأحكام فالشيخ الثميني أعطى الإباضية هـذا الكتاب ليفتخر به في قضايا الأحكام.

إنّ **الروض البسّام**، منذ ألّفه صاحبه، اعتمد اعتمادا كبيرا فيما تبقّى من العهد العثماني (1518-1830م) واعتُمد كذلك في العهد الاستعماري ولا يزال يُعتمد عند فقهائنا ومن تولّى شؤون المجتمع.

إنّ من المصطلحات التي نجدها في هذا الكتاب، أو الجديد الذي يجلب انتباهنا في هذا الكتاب ولا نجده في كتب الأحكام الأخرى، هو أنّ تلك الكتب تُجمع على أنّ تعيين القاضي يكون من قبل السلطان أي الحكم (الرئيس أو الملك أو الوزير) أمّا في رياض الأحكام فإنّه يضيف إلى السلطان الجماعة[1] عندما ينعدم السلطان وهو ما كانت عليه جماعة الميزابيين في العهدين العثماني والاستعماري، قبل أن يتدخّل هؤلاء في شؤون القضاء الإباضي، ويقصد الثميني بالجماعة جماعة الفقهاء أو العزّابة أو أيّ جماعة أخرى تقوم مقام السلطان.

ونلاحظ كذلك أنّ الثميني يذكر أنواعا من القضاء مثل قضاء النساء وقضاء المسافرين وقضاء المعاملات[2]، فيجوز للجامعة أو السلطان أن يعيّنوا قاضيا للنساء وقاضيا للمعاملات وقاضيا للمسافرين.

إنّ قاضي النساء وقاضي المعاملات قد نجد لهما ذكرا في كتب القضاء عند المذاهب الإسلامية ولكن قاضي المسافرين يبدو أنّه شيء جديد عند الثميني استوحاه من طبيعة المجتمع الميزابي كثير الترحال والأسفار، وقد ذكرتُ في بداية هذه المحاضرة أنّ عصر الثميني يُعتبر عصر الاغتراب المكثّف للميزابيين بحثًا عن لقمة العيش لّما ضاقت الأراضي الزراعية وعجزت المياه عن توفير زراعة كافية لأبناء المنطقة الأمر الذي اقتضى السفر إلى الشمال للتجارة وممارسة بعض الحرف هناك، ولم يكن هذا السفر سهلا، فهناك اللصوص وقطّاع الطريق، فكثيرا ما يقع المسافر في الأسر أو القتل أو السرقة فما هو موقف رفقته وهم الشهود وهم التجّار وهم المسافرون معه؟ إذن لابدّ أن يكون للرفقة قاضي أو يكون في البلد قاض للمسافرين يختصّ بفضّ مشاكل المسافرين من هذا القبيل.

ومن القضايا التي أثارها الشيخ الثميني في كتابه قضية ميراث كتب أهل الوفاق لوارث من المخالفين[3] فهذا النوع من الأحكام قد لا نجده في فقه وأحكام المذاهب الأخرى...

(1) الورد البسّام، ص05.

(2) نفسه، ص07.

(3) نفسه، ص268.

المهمّ أنّ **الروض البسّام** كتاب له خصوصيته في عنوانه وفي منهجه وهدفه.

نأتي إلى خاصية الزمان والمكان: ففترة الثميني هي القرن الثامن عشر الميلادي بوادي ميزاب، وهي فترة الفتن الناشئة من التطوّرات السريعة في المجتمع (الإنسان) وفي ميزاب (المكان).

إذن لابدّ أن ننظر إلى الزمان من نافذة تلك التطوّرات، فالفتن إنّما هي من نوع الأزمة التي تلد الهمّة، وبالفعل منذ هذا التاريخ يبدأ المجتمع الميزابي يبرز بقوّة في العلم وفي التجارة، ويضع جزءًا من تاريخ الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد ليصل إلى ما هو عليه اليوم.

وأختم بسرعة مداخلتي هذه مستعرضا بعض محتويات كتاب **الروض البسّام** إضافة إلى المميّزات التي سبق وأن أشرت إليها وبدءًا ممّا بدأ به الشيخ الثميني كتابه وهو أدب القاضي[1] ولم يشذّ عمّن سبقه في هذا المجال، فجلّ من كتب في الأحكام استفتح كتابه بأدب القاضي الذي يعني ظروف القاضي عند الحكم أو المحاكمة، فلا ينبغي أن يكون جائعا ولا عطشانا ولا مرهقًا ولا غضبانا، كما لا ينبغي أن يكون قريبا من أحد الخصمين بعيدا عن الآخر، وما إلى ذلك من آداب القاضي.

ومن محتويات الكتاب باب الدعوى في البيوع وعيوب البيوع والشفعة والرهن[2] والحسبة[3] وكذلك الدعوى في القصاص، النكاح والطلاق، الأمانات وأطنب في الشهادات من تجوز شهادته ممّن لا تجوز، وتناول الأيْمان وكيفية أدائها[4] كما تناول الحبس والزنا وحدّه والسرقة وشرب الخمر والارتداد[5].

وتطرّق إلى إحياء الأرض وحيازتها والدعوى في الأرض وحرث أرض الغير بتعدية ومشكلة المياه[6]، والغريب أنّه تحدّث عن ضمان السفينة[7] رغم أنّ ميزاب بعيد عن البحر، ولعلّ ذلك من تأثيرات بعض كتب إباضية جزيرة جربة عِلما أنّ **ديوان المشايخ** أُلِّف في غار مجماج بجربة.

(1) نفسه، ص21.

(2) نفسه، ص29-54.

(3) نفسه، ص118.

(4) الورد البسّام، ص54-118.

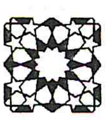
(5) نفسه، ص124-164.

(6) نفسه، ص186،112،221.

(7) نفسه، ص199.

وتناول الكتاب كذلك مسائل العبيد[1] وذكر أنّ مزاب لا يوجد به الختم[2] في زمانه لختم الرسائل أو لختم الأحكام المنطوق بها...

مجمل القول أنّ الشيخ الثميني الذي التفتت إليه الجمعية الثقافية القطبية هذه الالتفاتة الكريمة لجدير بهذا الملتقى لإجلاء شخصية ودراسة كتبه ورجاؤنا أن لا يبقى الثميني في هذا الملتقى فحسب وألاّ تكتفي الجمعية به فقط وإنّما هذا الملتقى فاتحة لملتقيات أخرى تتناول جوانب من شخصية الثميني، فقد كان كما يقول أبو اليقظان: «إماما في عصره ومن بعد عصره إلى يومنا هذا»[3].



(1) نفسه، ص233-236.

(2) نفسه، ص266.

(3) أبو اليقظان: ملحق السير (مخ)، ص75.

ضياء الدين أنعم من ضياء

وَلُــودٌ لِلعَبَــاقِــرَةِ العِظَــامِ … وَمُنْــجِــبَةُ الأَكَــابِرِ وَالكِرَامِ

هِيَ البَلَدُ المُقَدَّسُ فِــي رُبُــوعٍ … مُبَــارَكَــةٍ مُــبَارَكَةَ الــمَرَامِ

إِذَا مَا العُــقْمُ حَلَّ بِكُلِّ أَرْضٍ … فَيــزَقْنَ لَــنْ تُعــقمَ لِلــدَّوَامِ

سَــلُوا التاريخَ عَمَّنْ أَنْجَبَــتْهُمْ … وَكَــانُوا أَنْجُــمًا وَسَطَ الظَلَامِ

سَيَشْــهَدُ لاَ مُجَامَــلَةً وَمَنْ ذَا … مِنَ التَّارِيخِ أَصْدَقُ فِي الكَــلَامِ؟

أَخَــافُ إِذَا عَدَدْتُ لَهَا عِظَامًا … يُخِلُّ بِعَــدِّهِمْ ضَــيْقُ الــمَقَامِ

فَحَــسْبِي أَنْ أَقُولَ بِكُلِّ فَــخْرٍ … أَيَا أُمَّ الفَــطَاحِلِ وَالعِــظَــامِ

لَقَــدْ أَنْجَبْتِ أَعْــلَامًا كِــرَامًا … يُشِــيدُ بِفَــضْلِهِمْ كُــلُّ الأَنَامِ

فَــتِيهِي فِي الــمَحَافِلِ بِاعْتِزَازٍ … فَمَنْ كَــبَنِيكِ أَوْلَــى بِالوِسَامِ؟

أُحَــيِّي نُخْبَةً وَقَــفَتْ جَــلَالًا … لِــتُحْيِي ذِكْــرَى عِمْلَاقٍ هُمَامِ

تَــلَقَّبَ بِالضِيَاءِ فَكَــانَ حَــقًّا … ضِــيَاءً مِثْــلُــهُ بَدْرُ التَّــمَامِ

ضِــيَاءُ الدِّينِ أَنْــعَمُ مِنْ ضِيَاءِ … ثَمِينِيُّ الدَّلَالَــةِ فِي الأَسَــامِي

وَكَمْ قَدْ طَابَقَ الاسْمُ المُسَــمَّى … مُــطَابَــقَــةً تَــدُلُّ عَلَى المَقَامِ

لَئِنْ عَجَزَ اللِّسَانُ وَلَيْــسَ بِدْعًا … فَشَأْنُ الشَّيْخِ أَعْظَــمُ مِنْ كَلَامِي

وَأَنَّــى أَنْ أُحِيطَ بِنُــورِ شَمْسٍ … وَأَبْلُــغَ فِي تَــتَبُّعِهَا مَــرَامِي

وَمَــنْ يَقْوَى عَلَى نَــظَرٍ مَلِــيًّا … إِلَى ذَاكَ الضِّــيَاءِ بِلَا انْــهِزَامِ ؟

فَحَسْــبِي أَنْ أَكُــونَ لَهُ وَفِــيًّا … أُعَظِّمُــهُ أُكِــنُّ لَهُ احْــتِرَامِي

لَقَــدْ كَانَ الهُــمَامُ مِثَــالَ عَزْمٍ … فَخَــاضَ غِمَارَ أَهْــوَالٍ جِسَامِ

أَلَمْ يَكُ فَارِسًا حِــسًّا وَمَعْــنًى … وَلُوعًا بِالشَّــدَائِدِ فِي اقْــتِحَامِ؟

تَحَــدَّى قَــوْمَهُ بِجَــلِيلِ وَعْيٍ … وَكَانَ القَــوْمُ أَشْبَهَ بِالنِّــيَامِ

تَحَدَّى أَعْتَى مَا قَدْ كَانَ يُخْشَى … مِنَ الفِــتَنِ الشَّدِيدَةِ كَالظَّــلَامِ

وَأَصْــبَحَ فَيْصَــلًا فِيهَا حَرِيصًا … عَلَى رَأْبِ التَّصَــدُّعِ فِي الصِّدَامِ

وَكَـانَ شِـعَـارُهُ دَوْمًا نِدَاءً ... إِلَى لَمِّ الشَّـتَاتِ عَلَى الـوِئَامِ

تَحَـدَّى عَصْـرَهُ بِجَـلِيلِ عِلْمٍ ... وَمَا عَـرَفَ الدِّرَاسَةَ بِانْـتِظَامِ

لَكَمْ شَـغَلَتْـهُ عَنْ عِلْمٍ شُؤُونٌ ... مِنَ الكَسْبِ الحَـلاَلِ بِلاَ غَرَامِ

لِهَـذَا عَادَ مُشْـتَاقًا شَـغُوفًـا ... إِلَى رَوْضِ الـمَعَارِفِ بِاهْـتِمَامِ

سَقَى رَوْضَ العُلُومِ بِفَيْضِ "نِيلٍ" ... كَمَا حَمَلَ "الوُرُودَ عَلَى ابْتِسَامِ"

وَ"تَوَّجَ" هَـامَةَ العِرْفَـانِ فِقْهًا ... وَتَـوْحِيـدًا يُـزَيِّنُ كُـلَّ هَامِ

وَأَوْقَـدَ فِي ظَـلاَمِ الجَهْلِ نُورًا ... وَ"مِصْـبَاحًا" مُبِـيدًا لِلظَّـلاَمِ

وَعِنْدَ "تَعَاظُمِ الْمَوْجَيْنِ" أَبْـدَى ... مَهَـارَةَ سَـابِحٍ رَغْمَ اللِّـطَامِ

كَـمَا وَضَعَ "المَعَالِمَ فِي طَرِيقٍ" ... لِفَـلْسَـفَـةٍ وَعِـلْمٍ لِلْكَـلاَمِ

فَتِـلْكُمْ بَعْضُ مَا جَادَتْ عَـلَيْنَا ... بِـهِ أَنْـفَاسُ عَالِـمِنَا الإِمَـامِ

لِمِثْلِ عَطَـائِهِ وَجَـبَ احْتِفَالٌ ... يُنَـوِّهُ بِالـمَكَـانَةِ وَالـمَقَامِ

فَـتَكْرِيمُ الرِّجَالِ دَلِـيلُ وَعْـيٍ ... يُبَـشِّـرُ بِالنُّهُوضِ وَبِالتَّسَامِي

دواق سليمان

مهرجان الشيخ عبد العزيز الثميني

1999 / 06 / 17

الكلمة الختامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

- مشايخنا الأجلاّء، أساتذتنا الفضلاء،
- السيّد والي الولاية، السّادة أعضاء حلقات العزّابة،
- السيّد رئيس المجلس الشعبي البلدي،
- السادة أعيان المنطقة،
- أيّها المثقّفون،
- أيّها الضيوف، أيّها الحضور الكريم،

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

أوّلا أحمد الله تبارك وتعالى على مِننه وآلائه وفضله علينا، ﴿الْحَمْدُ للهِ الذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أن هَدَانَا اللهُ﴾.

عن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سلَك طريقا يبتغي فيه علما سهَّل الله له طريقا إلى الجنّة، وإنَّ الملائكة لَتضَعُ أجْنحتَها لطالِب العِلم رضًا بما يصنع، وإنَّ العالِمَ لَيستغفِرُ له مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض حتّى الحيتانُ في الماء، وفَضْلُ العالِم على العابد كفَضْل القمَرِ على سائِرِ الكواكب، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإنّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارا ولا دِرْهما وإنّما وَرَّثُوا العِلْم، فمَنْ أخذه أخذ بحظٍّ وافِر». (أبو داود والترمذي).

فنحن اليوم —سادتي- نأتي إلى نهاية أشغال هذه الأيّام الدراسية حول أحد ورثة الأنبياء، **ضياء الدين الشيخ عبد العزيز الثميني** رحمه الله، فنحن في أيّامنا نستغفر له، ونترحّم عليه، بحضورنا ومشاركتنا وإثرائنا لهذا اللقاء المبارك.

إنّ هذا الملتقى يعتبر فرصة لرؤية واضحة تعرِّفنا أين نقف؟ وكيف نتحرّك؟ وأيّ طريق نسلك؟ وأيّ هدف نهدف؟ وما نريد؟ لأنّنا نعيش زمانا تشعّبت فيه الفلسفات وتبايَنَت فيه المناهج، وتناقضت المسالك، وتفرّق الناس في وقت يدعوهم دينهم إلى اتّباع سبيل واحد.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾.

فرجائي أن يكون هذا اللقاء مناسبة لرفع الهِمَم، والاهتمام بأهل الإخلاص من سائر أمجاد الجزائر والبلاد الإسلامية.

فكيف ترتفع راية بلادنا وراية الإسلام إذا أجحفنا حقّ علمائنا ومشايخنا وأسلافنا المجاهدين.

حسْبنا أنّنا جمعنا أهل العِلم وعرّفنا من خلالهم بتراث عالِم مثل الثميني الذي يستحقّ أكثر من هذا، ومهما حاولنا فلا نستطيع أن نوفّيَ حقَّه، فشخصية الثميني عظيمة، وعظيمة عظمة العلم في أرض الجزائر.

فنحن ندرك تمام الإدراك أنّ الطريق طويل وشاقّ، فلا نتعجّل الثمار لأنّ الله تعالى سائِلُنا يوم القيامة عن ماذا عَمِلنا فيما علِمنا.

فالجمعية الثقافية القطبية حاولت أن تلتزم بأهدافها، وهي بعث التراث الإسلامي العريق للجزائر من خلال دراسة شخصياته العظيمة، ونَقْلِ أفكارها إلى الأجيال اللاّحقة لِتبلْوِرَها حسب معطيات زمانها، لهذا فرجاؤنا وأملنا :

1. أن نواصل على هذا الدرب بالتعريف بعلمائنا.
2. أن نوفّر للباحثين فُرَصًا للإلتقاء، حتّى تلتحم القلوب وتتوحّد الأفكار، وتتعارف الشخصيّات.
3. أن يجد الباحثُ والدارس بغيَته، ويشبع فضولَه بكشف المدفون والمغمور.
4. أن نبعث روح مدّ الجسور بين الأجيال.
5. أن نغرس ثقافة الاختلاف وآدابه وكيف كان العلماء يتقبّلون آراء بعضهم البعض ويحترمونها.
6. أن نكرّر مثل هذه الأيّام دوريا.
7. أن يكون الثميني رمزا يبعث الحركة العلمية.
8. أن تُطبع هذه البحوث وتُنشر لكي يستفيد منها الباحث والدارس والمثقّف.
9. أن نغوص في فكر الثميني أكثر، حتّى لا يبقى تراثُه حبيس الرفوف تَصول داخله وتجول الأرضة.
10. أن تجد الجمعية الثقافية القطبية من الأساتذة الاستعداد للبحث في قضية علاقة الثميني بمجلس عمّي سعيد وإيجاد الوثائق الدالّة على ذلك.

ولا يفوتني أن نقف في هذا اليوم الذي يصادف ذكرى 19 جوان 1999 ذكـــرى التصحيـــح الثوري السياسي المتزامن للتصحيح العلمي.

وفي الأخير أشكر أحفاد الثميني الذين أفادونا بمعلومة تاريخية، وهي أنّ الشيخ هو الذي أرسى نظام "إينارَنْ" ببني يزقن، وهو أن يتوجّه المواطنون ليلة المولد النبوي الشريف بعد أداء صلاة المغـــرب إلى المسجد حاملين مصابيح زيتية، ويفرغونها في أواني، لتكون وقودا لإنارة المسجد مدّة عام كـــامل؛ وأنّه قام ببعض الإصلاحات في الأعراس، وبدأ تطبيقها في عائلته ليقتدى به.

كما لا يفوتني الترحّم على روح الفقيد شيخنا الحاج صالح بزملال.

أشكر سادتي وأساتذتي الأجلاّء على حضوركم.

وأشكر كلّ من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاح هذه الأيّام.

أشكر كلّ الشباب والإخوة في مختلف اللجان على مساعدتهم وسهرهم معنا على ضبط البرنامج.

وأشكر وزارة الثقافة والاتّصال وكتابة الدولة للثقافة على تأييدها ومساعدتها لنا، وبلدية بنورة،

وكذا الخطوط الجويّة الجزائرية، والنادي السياحي الجزائري، والخدمات السياحية الدوليـــــة، وكذا المحسنين على المؤازرة.

ولا أنسى أن أشكر كلّ الذين وجّهوا إلينا فاكسات يعتذرون فيها عن الحضور.

وأبلغكم أيّها الحضور تحيّات شيخنا وأبينا فضيلة الإمام نوح مفنون محمّد بن بنـــوح رئيـــس حلقة عزّابة بني يزقن الذي يعتذر عن حضور أشغال أيّامنا، فهو يباركها ويدعو لنا بالتوفيق، نســـأل الله تعالى أن يشفيه ويخفّف عنه معاناته.

وفي الأخير أقول لكم سادتي هذه العبارات بالفرنسية:

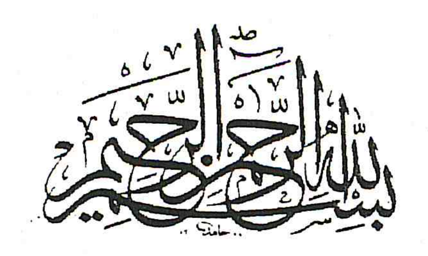
Si mon cœur était un encrier, mes doigts une plume,
avec les gouttes de mon sang j'écrirais: je vous aime.

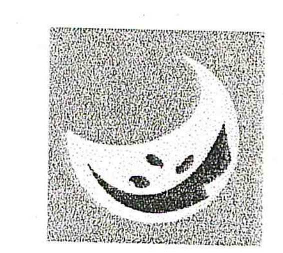
رئيس الجمعيّة

صالح بن إسماعيل بليدي

الملحق

جواب رئيس الجمعية الثقافية القطبية على رسالة
فخامة رئيس الجمهورية السيّد عبد العزيز بوتفليقة.





الجمعية الثقافية القطبية

غرداية-بني يزقن

إلــى فخامة السيّد رئيس الجمـهـوريّـة

سلام الله عليكم ورحمته تعالى وبركاته، أمّا بعد :

إنّ الجمعيّة الثقافيّة القطبيّة التي تنتسب إلى قطب العلم والعلماء الشّيخ الحاج امحمّد بن يوسف اطفيّش، وعملت منذ نشأهّا في خدمة الثقافة والعلم، متحدّية المثبّطات والعوائق والصعوبات، وهي تحيي ذكرى ابن من أبناء الجزائر البررة الشّيخ عبد العزيز الثّميني، لا يسعها إلاّ أن تستقبل رسالة فخامتكم ببالغ الحفاوة والاهتمام والتّقدير، لما تضمّنته من ردّ الاعتبار للثقافة والعلم، وللعمل الجادّ والصّادق والمخلص في ميدانهما، ممّا يسهم في إعادة الثقة إلى أهلهما في غد مشرق للثقافة في الجزائر، وغد أكثر إشراقا لوطننا العزيز تحت قيادتكم الرّشيدة.

إنّ الجمعيّة لا تجد من عبارات الشكر والثناء ما يقوم بأداء بعض الواجب تجاه هذه الالتفاتة الطيّبة من أعلى هيئة في البلاد، تعلن عن عقد الصّلة السليمة والمثمرة بين السلطة والعلم، التي لا يمكن أن ينتج عنها سوى السداد في خطوات الأمّة الجزائريّة في سبيل تجاوز أزمتها، والانطلاق نحو آفاق واعدة بالرقيّ والازدهار، لتتبوّأ مكانتها كاملة غير منقوصة في عالم الألفيّة الثالثة.

إنّ رسالتكم - فخامة الرّئيس - بقدر ما شرّفتنا، وشرّفت العلم وأهله، أشعرتنا بثقل المسؤوليّة، وإنّ مثل هذا الدعم الكبير من فخامتكم ليعزّز من قدرتنا على مواصلة الـــدرب، ويزيدنا عزما وإقداما في الاضطلاع بهذه المسؤولية، والإسهام في خدمة العلم والثقافة.

إنّ الجزائر التي أنجبت ضياء الدين عبد العزيز الثميني وغيره، قديما وحديثا، ممّـــن أثـــروا الثقافة الإنسانية، لم تعقم ولن تعقم في إنجاب أمثالهم ممّن يحقّقون عزّة الجزائر وكرامتها، فـــالعلم درعنا الواقي، وسلاحنا في عالم الغد الذي لن يعلو فيه سوى صوت العلم والمعرفة، فإذا رعـــاه الحاكم وتعهّده ورسّخه فالفلاح حليف أمّتنا الجزائريّة لا محالة.

نسأل الله تعالى أن يرعاكم ويسدّد خطاكم في رفع العلم والفضيلة، وتحقيق جزائـــر العزّة والكرامة.

والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

بني يزقن في 05 ربيع الأوّل 1420هـــ

الموافق لـــ: 19 جوان 1999م.

رئيس الجمعية الثقافيّة القطبية :

صالح بن إسماعيل بليدي